يلعن روحك يا حافظ

وقصص أخرى

بقلم / محمد غياث استانبولي

المقدمة

الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:
فلا يخفى على أحد أهمية القصة في تكوين شخصية الإنسان وصياغة تربيته وتأثيرها على أخلاقه وتصرفاته ولأهمية القصة حفل كتاب الله بالحديث عن قصص الأنبياء والأقوام السابقين وكذلك اشتملت سنة النبي عليه الصلاة والسلام على قصص كثيرة جدا حتى قام غير واحد من العلماء المعاصرين بجمع قصص القرآن وقصص السنة في مؤلفات مفردة ولم تخف أهمية القصص وتأثيرها على القراء على أعداء الأمة فقاموا بالتشجيع على كتابة القصص الهدامة التي تدمر شخصية المسلم وتفسد عقله ودينه وتحطم أخلاقه وتعبث بقيمه فاستجاب لذلك فريق من أذناب الغرب من أبناء جلدتنا فرفع الغرب من شأنهم وروج لهم وزعم أنهم أرباب البيان وفرسان الأدب وذوو الأقلام البارعة والأساليب الرائعة وأنهم أساطين حرية الفكر وأصحاب الشجاعة الأدبية الذين يعالجون الواقع ويعرضون تفاصيله كما هو دون خوف أو مواربة ورصد لهم الجوائز العظيمة والأموال الجسيمة وكرمهم على منصات العالمية والدولية وفي الوقت ذاته سعى إلى طمس أعمال الأدباء الإسلاميين وحاول جهده إخمال ذكرهم وإغفال أعمالهم والتقليل من قيمتها ورميها بالجمود والتزمت مع أن أديبا واحدا من فحول الأدباء الإسلاميين كالشيخ علي الطنطاوي رحمه الله يعدل ألفا من أدباء العلمانية وأذناب الغرب ودعاة الانحلال.

وبعد فهذه واحد وعشرون قصة ـــ بعضها حقيقي ليس لي فيه سوى السبك والصياغة وبعضها خيالي ولكنه مستوحى من الواقع ـــ كنت قد كتبتها في مجلة بلاغ الشهرية التي تصدر من مدينة إدلب وقد رأيت أنه من الخير جمعها في كتاب واحد ليعم بها النفع

واللهَ أسأل أن يجعلها خاصة لوجهه بمنه وكرمه إنه خير مسؤول

مدينة إدلب حرسها الله
18/شوال/1442 هـ الموافق 2021/5/30م

لقمة الخبز الأخيرة

الزمان والمكان : حلب - الشعار - فرن الخبز - 2013

نهض أحمد من فراشه متثاقلا ولا يزال النوم في عينيه، غسل وجهه وارتدى ثيابه وأخذ النقود من والدته بعد أن طبعت قبلة على جبينه واستعد ليمضي ساعات طوالا أمام فرن الخبز حتى يأتي دوره، ودَّعته أمه عند الباب وأوصته أن ينتبه لنفسه وأن يعود سريعا بعد حصوله على الخبز، فهي تخشى عليه من القصف الوحشي الذي يقوم به النظام المجرم.

خرج أحمد من بيته ومشى باتجاه الفرن وأخذ يسلي نفسه بترديد الهتافات التي عمَّت في المظاهرات في أرجاء سورية: «يا الله ما لنا غيرك يا الله» وتارة: «عاشت سورية ويسقط بشار الأسد»، وأخرى: «الشعب يريد إسقاط النظام»، وظل هكذا حتى وصل الفرن، وكالمتوقع وجد أمامه رتلا طويلا من الناس ينتظرون دورهم ليشتروا الخبز.

أخذ أحمد البالغ من العمر عشر سنين دوره في هذا الرتل، وأخذ الرتل يمشي بطيئا بطيئا، وطال انتظار أحمد وأخذت عصافير بطنه تزقزق من الجوع، وأخيرا وبعد ثلاث ساعات كوامل جاء دوره، تقدم أحمد وأعطى الخباز مائة ليرة وأخذ الخبز فرحا سعيدا بانتهاء هذه المهمة الشاقة، ثم نظر أحمد خلفه فإذا هو بصديقه زيد واقفا في الرتل يريد أن يشتري الخبز أيضا وقد بقي أمامه ثلاثة أشخاص، فطلب زيد من أحمد أن ينتظره كي يترافقا في طريق العودة، تنحى أحمد جانبا وأخذ رغيفا من الخبز وبدأ يأكله ريثما يأتي دور زيد، وفي هذه الأثناء سمع الناس صوت مروحية في الجو، وأخذ الجميع ينظر نحو السماء، ولكن أحدا منهم لم يغادر مكانه فقد صار هذا أمرا عاديا ففي كل يوم تلقي المروحيات عشرات البراميل في حلب وريفها.
وبينما الناس ينظرون صاح أحدهم «شلفت، شلفت، فوقنا» وهنا دب الذعر في الناس وأخذوا يتراكضون يمنة ويسرة، خاف أحمد خوفا شديدا ولم يجد إلا برميل مازوت فارغ فاختبأ خلفه ومضغة الخبز لا تزال في فيه، هوى البرميل وانفجر وتناثرت شظاياه مخلفة عشرات القتلى والجرحى.

ومن سمع الانفجار في الحارات المجاورة أخذ يسأل أين سقط البرميل، ووصل إلى سمع أم أحمد أن البرميل سقط قرب الفرن وأن الجثث ملأت المكان، ارتدت حجابها

مسـرعة وخرجـت باتجـاه الفـرن، وبيـن أشـلاء الشـهداء ودمائهـم الزكيـة أخـذت تبحـث عـن ابنهـا قلقـة وجلـة حتـى وجدتـه قـرب برميـل المـازوت الـذي كان مختبئـا خلفـه وقـد اخترقـت شـظية جسـده الغـض الطـري ففـارق الحيـاة، رفعتـه إليهـا ضمتـه إلـى صدرهـا، ولاحظـت أن شـيئا مـا داخـل فمـه، فتحـت فمـه لتجـد لقمـة مـن الخبـز وقـد امتـلأت بالدمـاء، أخـذت تبكـي فوقـه بحرقـة وحـرارة وتدعـو على بشـار ونظامـه قائلـة: «الله لا يوفقهـم، إن شـاء الله ولادك يتيتمـوا يـا بشـار، الله يأخـذ لـي حقـي منكـم»، حـاول النـاس تهدئتهـا وأخـذ الصبـي الشـهيد مـن بيـن يديهـا فرفضـت ذلـك بشـدة وهـي تقـول: اتركونـي، اتركونـي، هـذا حبيبـي أحمـد، هـذا ابنـي، وبعـد جهـد نهضـت أم أحمـد وتولـى الرجـال أمـر الشـهداء، ثـم دفـن أحمـد ووقفـت أمـه عنـد قبـره، وقالـت: أسـتودعك الله يـا ولـدي، اللهـم تقبـل أحمـد عنـدك في الشـهداء وانتقـم ممـن حرمنـي منـه وأذلـه في الدنيـا وعذبـه في الآخـرة.

انتهت..

راودته فاستعصم

فرغتُ للتو من دفن صديق لي عزيز على قلبي، وبعد أن ضمته الأرض بين جوانحها توجهت إلى الله تعالى أسأله أن يجعل صديقي من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فهو إلى كونه شهيدًا قد تعرض إلى فتنة عظيمة نجاه الله منها وعصمه من الوقوع فيها وأنقذه من الانحدار في مستنقعها.

أما كيف حدث ذلك؟ فهي قصة غريبة يَنْدُر مثلها، وذلك بعد تحرير منطقة الشقيف والجندول في حلب اتخذ صديقي مصطفى من أحد الأماكن هناك مقرًا مع أفراد سريته سرية الظاهر بيبرس، وهذه السرية اختصاصها دبابات وBMB ، ثم شارك مع إخوانه في دبابته في عدد من المعارك أذاق خلالها النظام الأمرين، وفي إحدى هذه المعارك وبينما مصطفى يقود دبابته وبقربه صديقه عادل ضرب النظام الدبابة بصاروخ مضادٍ للدروع فعطبها وغاب مصطفى وعادل عن الوعي.

وجاء المجاهدون وتمكنوا من إخراج مصطفى وعادل من الدبابة ثم نقلوهما إلى المستشفى، فأما عادل فلم يلبث أن فارق الحياة، وأما مصطفى فقد كانت إصابته بليغة وقد أصيب جسده بحروق شديدة، وقرر الأطباء نقله إلى تركيا لينال العناية الطبية اللازمة، وبالفعل حضرت السيارة إلى مشفى الصاخور في حلب ووُضع مصطفى خلالها وانطلقت لتدخل تركيا من باب الهوى وينزل مصطفى في أحد مستشفياتها، لما أفاق مصطفى من غيبوبته أخذ ينظر حوله فرأى الأسرَّة البيضاء في غرفته المطلة على حديقة المشفى، ورأى السيروم معلقًا في يده، ورأى الطبيب واقفًا على رأسه يبتسم له، ثم رطن ببعض الكلمات وغادر الغرفة، ولم يفهم مصطفى مما قال حرفًا.

أخذ مصطفى يتذكر ما حدث معه، وقفزت إلى ذاكرته صورة الصاروخ وهو متجه إلى دبابته قبل أن يصدم بها ويغيب مصطفى عن الوعي، وتذكر صديقه عادل، فسأل الممرضة إلى جانبه: أين أنا؟ وكيف جئت إلى هنا؟ وهل عادل بخير؟
فلم تفهم الممرضة التركية شيئًا مما قال، وطنت بضع كلمات لم يفهم هو أيضا منها شيئًا.

ثم بدأ مفعول المخدر يزول وأخذ الألم ينهش جسد مصطفى، وأحس أنه مقيد

مكبل، وأطلق عدة آهات سمعها مرافقه فدخل ليطمئن عليه.

فرح مصطفى كثيرًا عندما شاهد «عامر» أحد أفراد سريته مرافقًا له، وسأله عن عادل، إلا أن عامر أخفى خبر استشهاده، وقال له: حال عادل أفضل بكثير من حالك. وهنا قال مصطفى لعامر أشعر بألم شديد في وجهي، فقال عامر: طبعًا فوجهك أصيب بحروق شديدة، وأخرج عامر مرآة ووضعها أمام وجه مصطفى الذي دهش وهو يرى وجهه ملفوفًا بالشاش ولا تظهر منه إلا عيناه.

مكث مصطفى عدة شهور وهو يعاني آلامًا شديدة نتيجة الحروق، أخذت تخف تدريجيًّا، وبدأ وجهه يعود إلى شكله الطبيعي، وعلم أن صديقه عادل قد استشهد. كان الطبيب يزور مصطفى كل عدة أيام ليطمئن على صحته، وكان الممرضون والممرضات متواجدين بشكل دائم من أجل العناية بالمرضى، وكان لا بد أن يبقى فترة أخرى حتى يشفى.

وقد لاحظ مصطفى أن إحدى الممرضات تبدي عناية شديدة به تفوق عنايتها ببقية المرضى، وفي بادئ الأمر ظن أن مرد ذلك إلى أنها متعاطفة مع الثورة السورية، وأن هذا ليس سوى رحمة له بما أنه من أفراد الشعب المظلوم المضطهد.

وخلال الشهور التي مكثها مصطفى في المستشفى التركي تعلم كثيرًا من الكلمات التركية، بل أخذ يتكلم التركية ولكن بصعوبة شديدة وبطء.

وفي ذات يوم دخلت تلك الممرضة وجلست بقربه، وبدا عليها الخجل والاضطراب، ثم ما لبثت أن أخبرته أنها تحبه.

صُدم مصطفى لما سمع ذلك وتلعثم ولم يدر بما يجيبها، حتى الكلمات التركية التي يحفظها بشكل جيد لم يعد قادرًا على استحضارها بسهولة لهول الموقف. وأخيرًا قال لها: أشكرك على ما بذلت معي من جهود وإن الله لن يضيع أجرك، إلا أن هذا الجواب لم يعجبها فانصرفت، وبقي مصطفى حائرًا مضطربًا قلقًا لا يدري ما يفعل ولا كيف يتصرف.

وفي اليوم التالي رأى إعراضًا شديدًا عنه من تلك الممرضة، وأخذت تريه أنها غاضبة

منـه، ففـرح مصطفـى مـن داخلـه وظـن أنـه كفـي أمرهـا، إلا أنـه وبعـد أن أرخـى الليـل سـدوله عـادت ثانيـة لتقـول: بأنهـا حاولـت الضغـط على نفسـها محاولـةً نسـيانه إلا أن حبّـه قـد خالـط شـغاف قلبهـا، فردهـا ردًا جميـلًا، واسـتمر الحـال على هـذا أيامًـا.

وفي ليلـة مـن الليالـي جاءتـه وأخبرتـه أنهـا رتبـت غرفـة مجـاورة وهيأتهـا لـه وراودته عن نفسـه وأخـذت تعـرض عليـه مفاتنهـا تـارة، وأخـرى تتوسـل بدموعهـا، وثالثـة تشـكو لـه شـدة حبهـا، وأخـذ الشـيطان يزيـن لـه الفاحشـة، ويقـول: جاءتـك فرصـة العمـر، أنـت هنـا غريـب ولا يعرفـك أحـد، وهـذه فتـاة جميلـة معروضـة عليـك، ولـك مـن الجهـاد والحسـنات مـا يكفـر عنـك الخطيئـة.

ظـل مصطفـى واجمًـا لدقائـق يعتـرك داخلـه فيهـا الإيمـان والشـهوة، وأخـذت إرادتـه تضعـف أمـام كل المغريـات، وأحسـت الممرضـة بذلـك، فقالـت: هيـا بنـا، مـا الـذي تنتظـر؟ خطـا مصطفـى بضـع خطـوات معهـا باتجـاه الغرفـة حتـى وقـف على بابهـا، فتحـت الممرضـة البـاب فعبقـت في الجـو رائحـة العطـور، فتذكـر مصطفـى رائحـة البـارود والغبـار في المعركـة، ثـم نظـر إلـى السـرير الناعـم الأبيـض فتذكـر الخنـدق الموحـل الـذي كان يجلـس فيـه أثنـاء الربـاط، ونظـر إلـى جـدران الغرفـة وجمالهـا فتذكـر البيـوت المهدمـة جـراء القصـف الوحشـي، ونظـر إلـى وجـه الممرضـة وقـد وضعـت عليـه شـتى المسـاحيق فتذكـر النسـاء اللائـي يبكيـن أولادهـن الشـهداء، ونظـر إلـى نفسـه فتذكـر صديقـه عـادل الشـهيد وبقيـة إخوانـه الذيـن لا زالـوا يجاهـدون في سـوريا. لـم تعـرف الممرضـة مـا الـذي كان يـدور في ذهـن مصطفـى، ولـم تـدر لمـاذا وقـف عنـد بـاب الغرفة ولـم يدخلهـا، فقالت لـه: هيـا تفضـل ادخـل، نظـر مصطفـى إليهـا، وقـال: لـن أضيـع جهـادي ورباطـي وجراحـي مـن أجـل شـهوة عابـرة حقيـرة، وتذكـر قصـة يوسـف عليـه السـلام فامتـلأ قلبـه إيمانًـا ونزعـت مـن جسـده الشـهوة، وانطلـق خـارج المشـفى لا يلـوي على شـيء.
ولمـا طلـع الصبـاح كان مصطفـى قـد حـزم أغراضـه ورتـب أمـوره مـع سـريته وقـرر أن يكمـل مـا تبقـى مـن علاجـه في حلـب.

أمضـى مصطفـى عـدة أسـابيع حتـى شُـفي تمامًا وعـاد إلـى مقارعـة أعـداء الله النصيريين ومنازلتهـم حتـى رزقـه الله الشـهادة اليـوم وهـو في قلـب المعركـة؛ ليلحـق بقافلـة الشـهداء الذيـن باعـوا أرواحهـم لله، وأرجـو أن يكـون مصطفـى ممـن يـزوج يـوم القيامـة بثنتيـن وسـبعين مـن الحـور العيـن، فهـذه خصلـة مـن الخصـال التي أعدهـا الله للشـهداء.
انتهت ...

خسئت.. بل ربي الله

استغللت لحظة صفاء من أبي علي فجلست بقربه وقلت له: إيه يا أبا علي ألا تحدثني عن سجنك عند النظام؟
فقال لي: عن أيها يا ابن أخي؟
فقلت له: وهل سجنت أكثر من مرة؟
فقال: لقد سجنت مرتين.
فقلت له: إذًا أخبرني بالقصة من البداية.
فقال لي: نعم يا ابن أخي، خرجت مع الناس في المظاهرة ضد النظام، وكنت أنادي كباقي الناس مطالبًا بالحرية، ولم يجل في خاطري قط حمل السلاح أو تحول المظاهرات إلى ثورة مسلحة، حتى ألقي علي القبض في يوم من الأيام في مظاهرة في بستان القصر وسُقت إلى مخفر قرب منطقة السكري في حلب ومعي بضعة متظاهرين.

ثم أُودعنا الزنزانة ودخل علينا ضابط علوي كما كنا نسميهم، ثم علمنا بعد ذلك أن نسبتهم الحقيقية هي النصيرية، وأن فرنسا هي من أطلق عليهم «علوية» ليخدعوا بذلك أهل السنة.

دخل علينا ذلك الضابط النصيري والكبر قد ملأ عطفيه والشرر يتطاير من عينيه وقد تفجرت براكين الغضب والحقد في صدره، فأقبل علينا يسبنا أقبح سب سمعته، وتتخلل شتائمه ألوانا غريبة من الكفر وانتهاك حرمة المقدسات، ثم توجه إلى واحد منا وجمع يده وضربه بقبضته بقوة على أعالي أنفه فهشمه وسالت من أنفه مادة صفراء، وسقط الرجل على الأرض.

وهنا يا ابن أخي عاهدت ربي لئن خرجت من السجن لآخذن بثأر الرجل.

ولم يطل بنا الأمر؛ إذ لم نكمل يومًا في الزنزانة حتى أحاطت جموع المتظاهرين من أقربائنا وأصدقائنا وإخواننا بالمخفر إحاطة السوار بالمعصم، وهددوا باقتحام المخفر إذا لم يتم إطلاق سراحنا، فاضطر رئيس المخفر مكرهًا أن يطلق سراحنا.
فلما خرجت اتجهت مباشرة للوفاء بالعهد الذي عاهدت عليه ربي، وشكلت مع بعض ثقاتي سرية لاغتيال رؤوس الشبيحة الذين عاثوا في الأرض فسادًا.

وكانت أعمالنا يا ابن أخي تتسم بالسرية الشديدة؛ فحلب المدينة محتلة بالكامل ولا يوجد أي نشاط عسكري فيها.

وكان من الأعمال التي قمت بها أن أخذت من بعض أفراد سريتنا سارية ملغمة، وعلقت عليها علم الثورة الأخضر، وركزتها عند دوار جسر الحج بعد أن تأكدت أن أحدًا لن يراني، ثم انتظرت بعيداً عنها ولما طلع الصباح جاء أحد الشبيحة وأخذ السارية وقام بنزع العلم، وهنا ضغطت الزر فتفجرت السارية وتحول الشبيح إلى كومة أشلاء.

كما قامت سريتنا باغتيال عدد من الشبيحة أشهرهم غياث طيفور الملاكم الشهير في مدينة حلب.

وتابعنا يا ابن أخي عمليات الاغتيال، وكانت كثيرًا ما تكون عبر إلصاق عبوات بسيارات الشبيحة تنفجر عند إدارة محرك السيارة.

وفي ذات يوم يا ابن أخي حدث ما لم يكن بالحسبان، وذلك أننا كنا نخرج إلى الريف لإحضار لوازم التفخيخ من طرق معلومة لنا، ليس فيها حواجز للنظام، فخرجت مرة وأحضرت مستلزماتنا، وكان فيها طن ونصف من المتفجرات، وفي طريق العودة شاهدت من بعيد حاجزًا رافعًا علم الثورة، وكنا ستة مجاهدين في سيارتين، وجميعنا مسلحون، فلم أكترث بالأمر، فلما اقتربنا إذ بالأسطح مليئة بالمسلحين وقد وجهوا إلينا أسلحتهم، فظننت أن هناك سوء تفاهم، فنزلت لأكلم أمير الحاجز، وإذا الحاجز كمين للنظام وهؤلاء المسلحون شبيحة يتبعون لشبيح يدعى أبا دريد، فاعتُقلنا جميعاً ونقلنا إلى الفوج 46 ولم يكن محررًا يومذاك، ثم إلى فرع الأمن العسكري في مدينة حلب.

وهناك رأيت وذقت من العذاب ما لا يخطر لك على بال، وقد عُذبت عذابًا مضاعفًا عما ذاقه باقي إخواني، وذلك أن العناصر والشبيحة في الأمن العسكري اجتمعوا علينا يضربوننا ويسبوننا، ثم قال أحدهم لأحد المجاهدين: «من ربك ولاك حيوان؟» فمن شدة الألم ومرارة العذاب قال المجاهد: بشار، فالتفتُّ إليه، وقلت له: خسئت أنت وهو، بل ربنا الله، غضبًا عنك وعنه.

ولما لامس هذا الكلام آذان العناصر والشبيحة كأن كهرباء صعقتهم، فتركوا جميع المجاهدين وأقبلوا علي كالوحوش المفترسة يضربونني في كل مكان في جسدي، وضربني أحدهم بأخمص البارودة على فمي فسقط عدد من أسناني، وتتابع الضرب علي فكسر عدد من أضلاع صدري، ولم يقلعوا عني إلا بعد أن تعبوا من شدة الضرب، ولو نظرت إلي وقتها يا ابن أخي لما رأيت شيئاً من ملامح وجهي، فقد نزفت عيناي وكسر فكي الأسفل وهشم أنفي.

ولكن خذها مني يا ابن أخي: من وقف لله وقفة حق أنقذه الله ولو من براثن الأسد.
فقلت: أي الأسدين تقصد؟ أبشار أو الحيوان المعروف؟
فقال لي: لا فرق كلاهما حيوان.

لم يمض على سجني سوى أسبوع حتى قام بعض المجاهدين بخطف شقيق الدجال «أحمد حسون» من مسجد أسامة بن زيد في حلب، وبدأت مفاوضات التبادل بين المجاهدين وبين الأمن العسكري، وقد وافق الأمن العسكري على إخراج جميع من اعتقل على حاجز الشبيح أبي دريد باستثنائي، فرفض المجاهدون ذلك، ثم يسر الله الأمر وخرجت مع إخواني جميعًا مقابل إطلاق سراح شقيق الدجال أحمد حسون، مع تغريم الأمن العسكري قيمة المصادرات التي صودرت منا ساعة القبض علينا.

واسمع يا ابن أخي إلى قصة خروجي حتى تبقى معلقا القلب بالله، ويبقى اعتمادك عليه فقط، فهو سبحانه من بيده النفع والضر..
فقلت: هات يا أبا علي.
فقال: دخل المجاهدون بسلاحهم وسيارتهم إلى داخل الفرع، واصطحبوني مع بقية إخواني بعد أن أحكموا الخطة حتى لا يغدر بنا النظام.

وأنا خارج من الفرع نظرت إلى رئيس الفرع وهو يكاد يتميز من الغيظ على ما حصل معه، ولم أجد ساعتها ما أقوله إلا قول الله تبارك وتعالى: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا].

انتهت.

اليوم عرس ولدي

انطلقت السيارات تنقل المجاهدين من مقراتهم إلى المكان الذي حُدد للتجمع استعدادًا للإغارة على العدو في قرية عزيزة بريف حلب الجنوبي.

على طرفي الطريق الذي تسلكه السيارات تنتشر كروم الفستق الحلبي وتتناثر بعض البيوت داخل الكروم هنا وهناك..

بعد أذان المغرب كان جميع المجاهدين الذين سيشاركون في الإغارة قد تجمعوا في مستودع كبير، ولما سمعوا أذان المغرب ولامست آذانهم كلمة «الله أكبر الله أكبر» صغرت الدنيا في عيونهم وحقرتها نفوسهم، فالله أكبر من الدنيا وزينتها وزخارفها ومباهجها، ولما فرغ المؤذن من الأذان قام المجاهدون فتوضؤوا ثم صفوا خلف إمامهم فصلوا المغرب، وبعد الصلاة لبس كل واحد منهم جعبته واحتضن بارودته كما يحتضن الأب الشفيق ولده الصغير الحبيب إلى قلبه وأرهفوا أسماعهم انتظارًا لأمر القائد ببدء التسلل على العدو.

من بين المجاهدين كان محمود «والذي أطلق على نفسه لقب الحر» ينظر إلى بارودته ويناجيها قائلاً: اليوم يا «ريا» سأجعلك ترتوين من دماء هؤلاء الكفرة المجرمين، اليوم سنثأر للشهداء الأبرياء الذين قصفهم النظام ببراميله التي امتلأت حقدًا وعدوانًا، اليوم سأجعل من صدور النصيريين بيوتًا تسكنها طلقاتك..

وبينما هو يخاطب بارودته ناداه أحد أصدقائه: هيه.. يا حر ألم تتزوج بعد؟ التفت «الحر» مبتسمًا إلى صديقه، وقال: اليوم عرسي إن شاء الله. فذهل صديقه، وقال: لماذا جئت إلى المعركة إذن؟ فقال: لأن العرس سيكون على أرض المعركة، فقال الصديق: منذ متى صرت فيلسوفًا لا تُفهم الكلام وضِّح لي يا «حر»، معلوماتي أنك أعزب ولم تعقد العقد بل لم تخطب، فكيف سيكون عرسك اليوم وعلى أرض المعركة؟ أجاب الحر: ستفهم بعد المعركة إن شاء الله. لم تمض سوى لحظات حتى أعطى القائد الأمر ببدء التسلل نحو نقاط العدو.

سار المجاهدون في ثلاث مجموعات بين أشجار الفستق وقد سترهم الليل بظلامه عن عيون العدو.

اقتربت المجموعة الأولى من خندق العدو حتى صار المجاهدون يسمعون كلامهم، كان أحد النصيريين يخاطب بقية رفاقه قائلاً: «من أين جاءنا هؤلاء الإرهابيون، كنا نعيش بسعادة وكل شيء تحت أيدينا وسوريا ملك لنا، وأضاف قائلاً: يجب أن يفهم السُّنيون أنهم أجراء عندنا، ولنا الفضل في تركهم يأكلون من خيرات هذه الأرض.

فأجابه آخر: يا رجل هؤلاء الإرهابيون حمقى يظنون أنهم سينتصرون علينا والعالم كله يدعمنا ويقف معنا ضدهم، البواخر الروسية لا تكف عن تزويدنا بالأسلحة والمتفجرات، بل إنها صارت تجرب صواريخها وقذائفها المطورة بقصف المناطق التي يسيطر عليها الإرهابيون.

فقال ثالث: دعهم يقصفون الإرهابيين ومن يسكن في مناطقهم، يجب أن نقتل الإرهابيين ونساءهم وأطفالهم ومن يسكن معهم بدون رحمة ولا شفقة، ثم أخذ سيجارة وأشعلها وسحب منها نفسًا بعمق، فتوهج رأسها المشتعل.

أعطى أمير المجموعة الأمر ببدء الهجوم، وكان الحر أحد أفراد مجموعته، فسدد بارودته باتجاه السيجارة التي كانت واضحة في الظلام وانتظر حتى توهج رأسها مما يعني أن صاحبها قد وضعها في فيه وأخذ يسحب منها نفسًا جديدًا ثم أطلق الحر رصاصة استقرت في رأس صاحب السيجارة، وساد الرعب في خندق العدو، وانهمر رصاص المجاهدين على من في الخندق من العدو فعجلوا بذلك أرواحهم النجسة إلى النار.

وبدأت سرية الهاون التابعة للعدو تقصف المكان بشكل مكثف جدًّا، كما قامت مدفعيتهم بإمطار قذائفها على ساحة المعركة.

وفي هذه اللحظات بدأت المجموعتان الأخريان من المجاهدين باقتحام نقاط أخر للعدو، وقتلت من فيها، وزاد القصف كثافة حتى صار الليل نهاراً لكثرة الانفجارات، وسقطت قذيفة بالقرب من الحر فانفجرت وأصابت فؤاده شظية فارتقى شهيدًا. أعطى القائد الأمر للجنود بالانسحاب، فحمل المجاهدون جثة الحر على عجل وانسحبوا من المعركة بعد أن لقنوا العدو درسا لن ينساه أبدًا.

عاد المجاهدون إلى المستودع بعد منتصف الليل، وأخبروا والد محمود الحر أن ابنه

قد استشهد، فجاء على عجل ودخل المستودع ليرى الحر ممدودًا على الأرض باسم الثغر مشرق الوجه، وقبل أن ينحني عليه أو يقبله قال وحوله المجاهدون: إن الله وعدني إن صبرت على فقد ولدي الجنة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه عندي إلا الجنة) يا محمود يا حر إني أحتسبك عند الله، اللهم اشهد أني صابر على فقد محمود، ثم انكب على الحر يضمه إلى صدره ويقبله ويشمه، ويقول: نلت ما طلبت يا محمود، هنيئًا لك ما ظفرت به..

ثم نهض والتفت إلى المجاهدين قائلاً: إياكم أن يعزيني أحد في محمود، والله لا أقبل إلا التهنئة، اليوم هو عرس محمود، هيا يا شباب باركوا لي بعرس ابني «الحر»، فأقبل المجاهدون على أبي محمود يضمونه إلى صدورهم، ويقولون: هنيئا لك يا عمي أبا محمود، نسأل الله أن يتقبله في الشهداء، وإننا والله على دربه ماضون، وبنصر الله موقنون.

فقال أبو محمود: الحمد لله «الحر» رفع رأسنا عاليًا، وهذا أجمل يوم في حياتي، اليوم عرس ابني الحبيب.

سمع صديق محمود ما يقوله أبو محمود، فقال الآن فهمت كلام «الحر»، ثم انطلق إلى أبي محمود وقال: مبارك عرس ابنك «الحر» يا عم، لقد كان يطمع في الشهادة، وقد نالها.

انتهت.

اعتـدت أن أصلـي العصـر في جامـع عمـر بـن الخطـاب في حـي الهُلُّـك في حلـب عندمـا أخـرج مـع عـدد مـن الدعـاة في جولـة دعويـة نمـر خلالهـا على نقـاط الربـاط والحواجـز والمقـرات المنتشـرة هنـاك.

وللأسـف فـإن غالـب المقاتليـن هنـاك ذوو تديـن ضعيـف وأخـلاق سـيئة؛ فمعظمهـم مـن فصيـل الفرقـة سـتة عشـر، وكنـت في كل مـرة أذهـب فيهـا أشـعر أن جهودنـا تذهـب سـدى وأننـا كالمتطلـب مـن المـاء جـذوة نـار، فعندمـا نمـر عليهـم ونجلـس معهـم لا نـرى اهتمامًـا بـل إعراضًـا وتذمـرًا خفيًـا، ولا يدفعهـم إلـى الجلـوس والاسـتماع سـوى الحيـاء منـا، ولكـن مـا كان يدفعنـا للاسـتمرار والمثابـرة قولـه تعالـى ((مَعْـذِرَةً إِلَـى رَبِّكُـمْ وَلَعَلَّهُـمْ يَتَّقُـونَ)).

وظـل هـذا الاعتقـاد راسـخًا عنـدي حتـى صليـت مـرة العصـر في مسـجد عمـر ووقـف بجانبـي رجـل لـم أنتبـه إلـى ملامحـه في بدايـة الأمـر، ولكنـي لاحظـت عليـه خشـوعًا وتضرعًـا، وبعـد أن انتهينـا مـن الصـلاة رفـع الرجـل يديـه وأقبـل على ربـه يدعـوه بقلـب منيـب، وأخـذت دموعـه تـذرف مـن عينيـه.

نظـرت إلـى الرجـل وأخـذت أحـاول التذكـر أيـن رأيـت هـذا الرجـل مـن قبـل؟ وفجـأة قفـزت إلـى ذاكرتـي صـورة الرجـل وهـو يقـف على أحـد حواجـز الفرقـة سـتة عشـر، وأصبـت بدهشـة شـديدة، مـا الـذي غيّـر الرجـل؟ وكيـف مـنَّ الله عليـه بالهدايـة؟ هـذا الرجـل مـن أسـوأ مـن كنـت أعـرف في منطقـة الهُلُّـك، سـبحان مـن القلـوب بيـن إصبعيـن مـن أصابعه يقلبهـا كيـف يشـاء.

وتـرددت في سـؤال الرجـل عـن قصـة هدايتـه، ثـم عزمـت أمـري واقتربـت منـه بعـد انتهائـه مـن دعائـه وسـلمت عليـه، فـرد علـيّ السـلام، وأخـذت أسـأله أسـئلة أريـد مـن خلالهـا الوصـول إلـى هـدفي، سـألته عـن حالـه وصحتـه وأخبـاره..

ثم قلت له: مع أي فصيل تعمل؟

فقال لي: كنت أعمل مع الفرقة ستة عشر ثم تركتها.

ورأيت أن الفرصة قد سنحت لي، فقلت: ولماذا تركتها؟

فنظر إليَّ باستغراب وقال لي: سؤالك غريب، وهل تريدني أن أبقى معها؟

فقلت له: ليس هذا ما قصدت إنما أسأل فقط.
فقال لي: أنا أعرفك جيدًا وأعرف أنك تعرفني، ألست من الدعاة الذين يمرون علينا كل يوم أربعاء؟
فقلت له: بلى.
فقال: أليس الشيخ أبا محمد الحلبي معكم؟
فقلت: بلى.
فقال: ألم تكونوا في جولتكم تنزلونه على حاجزنا ثم تتابعون سيركم للوصول إلى النقاط الداخلية؟
قلت: بلى.
فقال: اسمع قصتي إذن، وجزى الله الشيخ أبا محمد عني كل خير وكثَّر في المسلمين أمثاله.
فقلت: هات فأنا متشوق لسماع قصتك.

فقال: كما تعلم كان الشيخ أبو محمد ينزل إلينا ويبدأ بوعظنا بحرقة أراها بادية على وجهه ورحمة تظهر واضحة بين ثنايا كلامه، ولكن الشيطان كان قد عشعش في رؤوسنا ثم باض وفرخ، فكنا لا نعير كلام الشيخ اهتمامًا بل ربما استهزأنا بالشيخ من طرف خفي، وقد يشعر الشيخ بذلك فيتغافل ويكمل نصحه وإرشاده لنا.
ثم لا يكتفي بذلك بل يقوم ويعلمنا الوضوء والصلاة بشكل عملي، ثم يأمرنا أن نقوم لنصلي سوية، فنقوم لنتوضأ حسب زعمنا، ثم نبتعد عن الحاجز ولا يبقى مع الشيخ إلا ثلاثة أشخاص أو أقل، وربما صلى بعض هؤلاء الثلاثة خلف الشيخ وهو جنب حياء منه، وخيرهم الذي يصلي هذه الصلاة فقط احترامًا للشيخ. وكان الشيخ لا يمل من نصحنا وزيارتنا مع إعراضنا عنه، وكثيرًا ما كان يحضر لنا معه بعض الهدايا اليسيرة كزجاجات العطر الصغيرة أو عيدان الأراك ليكسب ودنا ومحبتنا لننقاد معه إلى طريق الخير والفلاح.

وذات يوم جاء الشيخ كعادته وبدأ بإلقاء الدرس علينا، وكان الدرس عن التوبة، ومن عادة الشيخ أن يكثر من الآيات القرآنية في درسه، فشعرت أن الله تبارك وتعالى يخاطبني في تلك الآيات، قرأ الشيخ قوله تعالى: ((يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)) ثم أخذ الشيخ يفسرها قائلًا: أيها الإنسان الضعيف العاجز ألا تستحي من الله وقد غمرك بنعمته وألطافه؟! تأمل حولك سترى كل شيء مسخرا لك وأنت تعصي الله، ما الذي جرأك على ربك؟! ألأنه كريم اغتررت

بـه؟! ألأنـه حليـم لا يعاجـل بالعقوبـة أمنـت؟!

وأخـذت كلمـات الشـيخ تقـرع قلبـي قرعًـا، وأخـذت أتأمـل حالـي، حقًّـا كـم أنـا مقصـرٌ بحـق ربـي ومتعـدٍ على حـدوده، وهنـا أخـذ الشـيطان يوسـوس لـي، ويقـول: لا فائـدة مـن توبتـك، فأنـت مشـيت في جميـع دروب المعاصـي والضـلال، والله لا يقبـل أمثالـك.

وكأن الشـيخ شـعر بذلـك، فقـال: أيهـا العبـد العاصـي، أيهـا العبـد التائـه، يـا مـن غرقـت في بحـار الشـهوات، وترديـت في حمـأة الرذيلـة، لـو أقبلـت على ربـك لوجدتـه غفـورًا رحيمًـا، ثـم قـرأ قولـه تعالـى: ((قُـلْ يَاعِبَـادِيَ الَّذِيـنَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُـوا مِـنْ رَحْمَـةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِـرُ الذُّنُـوبَ جَمِيعًـا إِنَّـهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الرَّحِيـمُ)) وكانـت هـذه الآيـة إنعاشًـا لقلبـي وإلجامًـا لوسوسـة الشـيطان.

وهنـا قالـت لـي نفسـي: دعـك مـن هـذا الـكلام، فأنـت تعيـش في بيئـة منحرفـة ولا بـد مـن مسـايرة الواقـع ومجـاراة الأصدقـاء وإلا صـرت أضحوكـة بينهـم، إذا قمـت لصـلاة سـيقول لـك أصدقـاؤك: الآن أصبحـت شـيخًا؟ ألـم تكـن البارحـة تتعاطى الحبـوب المخدرة معنـا؟ ألم تكـن تسـتهزئ بالشـيخ كل مـرة بعـد انصرافـه؟ هـل نـزل عليـك الوحـي؟ وبينمـا النفـس تصـول على إرادة توبتـي بهـذه الخواطـر قـال الشـيخ: وقـد يسـأل سـائل مـا هـي الخطوات العمليـة للتوبـة؟ فأقـول: أول شـيء عليـك الاسـتعانة بـالله فهـو سـبحانه وتعالـى بيـده هدايـة العبـد، اطَّـرح بيـن يديـه وتذلـل لـه وأظهـر ضعفـك وعجـزك واسـأله أن يتـوب عليـك ويمـن عليـك بالهدايـة.

ثـم الخطـوة الثانيـة ابتعـد عـن الصحبـة السـيئة، وعليـك بالصحبـة الصالحـة، ثـم قـص قصـة الرجـل الـذي قتـل مائـة نفـس وفي آخـر الأمـر نصحـه العالـم قائـلًا: (اذهـب إلـى قريـة كـذا وكـذا، فـإن بهـا أناسـا يعبـدون الله فاعبـد الله معهـم، ولا ترجـع إلـى أرضـك فإنهـا أرض سـوء).

ثـم ختـم الشـيخ درسـه بذكـر هـول الموقـف يـوم القيامـة، وكيـف أن أناسًـا يتمنـون الرجعـة إلـى الدنيـا ليعملـوا صالحًـا فـلا يسـتجاب لهـم، فقـرأ قولـه تعالـى: ((وَأَنِيبُـوا إِلَـى رَبِّكُـمْ وَأَسْـلِمُوا لَـهُ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يَأْتِيَكُـمُ الْعَـذَابُ ثُـمَّ لَا تُنْصَـرُونَ (54) وَاتَّبِعُـوا أَحْسَـنَ مَـا أُنْـزِلَ إِلَيْكُـمْ مِـنْ رَبِّكُـمْ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يَأْتِيَكُـمُ الْعَـذَابُ بَغْتَـةً وَأَنْتُـمْ لَا تَشْـعُرُونَ (55) أَنْ تَقُـولَ نَفْـسٌ يَاحَسْـرَتَا عَلَى مَـا فَرَّطْـتُ فِي جَنْـبِ اللهِ وَإِنْ كُنْـتُ لَمِـنَ السَّـاخِرِينَ (56) أَوْ

تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)).

ثم قام وقال: جهزوا أنفسكم إلى الصلاة، فدخلت إلى المقر واغتسلت فقد كنت جنبًا منذ يومين ثم صليت وراءه، وعندما كبرت شعرت بطعم هذه الكلمة فعلًا: الله أكبر، وكل شيء في الدنيا حقير تافه لا قيمة له، وبعد أن أنهى الشيخ صلاته وقام لينصرف، قلت له: انتظر خذني معك، ثم سلمت الأمانات التي استلمتها من الفرقة ستة عشر وسط دهشة رفاقي، وقمت مع الشيخ وصحبته بقية يومه في جولته الدعوية.

ثم قلت له: أنا قد تبت وأنبت إلى الله فدلني على شباب صالحين أجاهد معهم ويعينوني على الطاعة.

فأخذ بيدي وسار حتى وصلنا إلى منطقة الجندول، وأسلمني إلى لواء يدعى لواء الإسلام وأوصاهم بي خيرًا، وبالفعل فنعم الإخوة هم وجدت فيهم العون على مرضاة الله وحرب الشيطان.

ثم قال لي: هذه قصتي وبقيت نصيحة خذها مني.
فقلت له: تفضل أخي.
فقال: إياك أن يصدك ما ترى من إعراض الشباب وتذمرهم؛ فالقلوب بيد الله، ولا تعلم متى يشرق نور التوبة والإيمان في قلب أحدهم فيكون ذلك خيرا لك من حمر النعم.

انتهت.

برميل القصاص

كان قيس ضابطًا في الجيش السوري وهو من الطائفة النصيرية، وقد ولد ونشأ وترعرع في إحدى قرى جبال الساحل السوري، التي كانت تعرف باسم جبال النصيريين، ثم سمتها فرنسا بعد احتلال سوريا بجبال العلويين خداعًا لعموم الشعب السوري المسلم.

ولما حصل قيس على شهادة الثالث الثانوي تطوع في الجيش السوري؛ لعلمه بأن الضباط في الجيش يتخذون من المجندين الإلزاميين بقرة حلوبًا تدر عليهم أموالًا عظيمة وتغل لهم ما قد تغل لأهلها قرى في العراق من قفيز ودرهم، إضافة إلى أنواع التكبر والصلف والطغيان الذي يمارسه الضباط على العساكر دون حسيب ولا رقيب.

أمضى قيس الدورة الأولى في الجيش ببعض المشقة نتيجة للتمرينات الرياضية التي كان يمارسها يوميًا مع بقية أفراد دورته، ولكن هذه المشقة لم تكن شيئًا يذكر بجانب ما لاقاه بقية أفراد الدورة ممن لم يكونوا من الطائفة النصيرية؛ فقد كان الضباط يتعمدون إذلالهم وإهانتهم وتحطيم معاني الرجولة والنخوة فيهم، ويسبون بألفاظ لو قلبت شعر الهجاء من أوله إلى آخره لم تجد أفحش وأبذأ منها. وتعاقب الليل والنهار وترفَّع قيس في الرتب وصار تحت يده مجموعة من العساكر مسؤولًا عنهم أو بمعنى أصح كان قائمًا على إفراغ جيوبهم ومص دمائهم واستغلال تعبهم.

وقد اعتاد قيس إذا جاءه العسكري المجند يطلب إجازة أن يسأله: من أين أنت؟ فإن قال: من حلب، قال له: حلب تشتهر بالزعتر والصابون فاجعل لي نصيبًا من ذلك، وإن قال: من حماة، قال: وهل تؤكل حلاوة الجبن إلا منها ومنذ زمن وأنا أشتهيها، وإن قال: من إدلب، قال: بلد الزيت والزيتون، لقد نفد الزيت في بيتي منذ يومين، والباقي يفهمه العسكري، وإن كان من شرق سوريا، قال له: اللحم شجرة العرب وعندكم غابات من تلك الشجرة فاقتطع منها خاروفًا، وإن قال: من دمشق، طلب منه جوالًا أو قطعة كهربائية أو أي شيء آخر.
فقد كان في ثكنته كالثقب الأسود يبتلع كل شيء، ولا يفلت أي عسكري من بين مخالبه وأنيابه إلا بعد أن يكون استفرغ ضرع ماله حلبًا.

كان قيس سعيدا فيما هو فيه من الأشر والبطر والطغيان ونهب الخيرات والتعالي على العساكر وظلمهم، شأنه في ذلك شأن بقية الضباط، فهذا ديدنهم وعليه ربوا، وقبيل كل شروق كان قيس ينهض من فراشه ليلقي على مسامع العساكر المحتشدين في ساحة الاجتماع كلامًا مكرورًا مملولًا ممجوجًا عن الحرية والوحدة والاشتراكية وحزب البعث وأفكاره النيرة (كقاع بئر عميق) وارتقائه بالشعب إلى قمة (الحضيض طبعًا) وانتصاراته الباهرة (التي أضاعت الجولان وقضت على خيرة ضباط الجيش)، والقيادة الحكيمة التي تسير بالشعب نحو (الهاوية) طبعًا.

ثم يتفنن في شتمهم وتعذيبهم أثناء التدريبات، فهذا يأمره بخلع ملابسه والتمرغ في التراب ظهرًا لبطن، وذلك يلزمه بأن ينزل إلى حفرة مليئة بالمياه القذرة النجسة كروح حافظ، وثالث يكون نصيبه الاضطجاع على دبابة قد أحالتها أشعة الشمس إلى فرن ينضج الجلود.

وإذا حل الظلام جلس قيس في مكتبه يعب الخمر بشراهة عجيبة وكأنه مجرور للصرف الصحي مهما سكبت عليه الماء لا يمتلئ، وفي أثناء ذلك يتكلم عبر جواله مع بعض الفاجرات اللواتي اتخذهن أخدانًا.

ولما شبت نار الثورة السورية وأخذت العساكر تنشق عن هذا النظام المجرم أحس قيس أن صدمة كهربائية قد أصابته، فهو دائمًا كان ينظر إلى الشعب كقطيع من البقر، وللفئة الحاكمة والجيش الفضل عليهم أن تركوهم يرعون كلأ هذا الوطن وسمحوا لهم بالحياة على أرضه، أما وقد تمرد هذا القطيع فلم يعد ينفع معه إلا الذبح.

وقد كان أشدّ ما يزعجه حين يسمع هتافات المتظاهرين، وهم يقولون: «هي لله هي لله، لا للسلطة ولا للجاه»، فكان يقول:
مَن علمَّ هؤلاء الملاعين هذه الشعارات الفارغة؟
وهل يستحقون أكثر مما تفضلنا عليهم به؟
أما يكفي أنهم يأكلون ويشربون؟
متى كان للبقر الحق في التكلم في شؤون السياسة والحكم؟
ثم أين سيجدون أفضل منا؟
إن الأسرى السياسيين في سوريا قبل اندلاع هذه المؤامرة لا يتجاوز عددهم الثلاثين

ألفًا من أصل خمسة وعشرين مليونًا، ولكن إذا لم يعجبهم هذا فسنقوم بقتل أضعاف أضعاف هذا العدد لنخرج شيطان الحرية من رأسهم.

وقد عهد إلى قيس بمهمة رمي البراميل المتفجرة للطائرات المروحية، فكان هذا يسعده جدًا وهو يرى البرميل يهوي في الجو ثم ينفجر محدثًا دويًا هائلًا وتتطاير أشلاء الأطفال والنساء والرجال، وعندما يرى ذلك كان يهتف قائلًا: «بدكن حرية، هي الحرية».

ومع كل برميل يهوي ترتقي أرواح بضعة شهداء وأضعافهم من الجرحى، ويهرع الناس والدفاع المدني لإنقاذهم.

ولكن هذا لم يطفئ نار الحقد في قلب قيس، فأوحى له كفره بفكرة إجرامية استعاذ منها الشيطان، وعندما صعد الطائرة المروحية جعل هدفه سوقًا في السكري في مدينة حلب يكثر فيه الناس جدًا، وفي الساعة الحادية عشرة صباحًا رمى قيس برميله الأول، وبقيت الطائرة واقفة مكانها، فهوى بقوة ثم انفجر وسقط عدد من الشهداء والجرحى، وتجمع كل من في السوق من أجل رفع الأنقاض وإنقاذ من تبقى على قيد الحياة وإسعاف الجرحى، وهنا رأى قيس أن الفرصة قد حانت فرمى ببرميله الثاني، فسقط وسط المحتشدين، فأوقع ما يزيد عن مائة شهيد، وأخذ قيس يقهقه بصوت مرتفع.

وارتفعت دعوات المظلومين الذين فقدوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم، ففتحت لها أبواب السماء.

عاد قيس فرحًا مسرورًا بالنصر الذي حققه على أناس لا ناصر لهم إلا الله، وأمضى ليله في سكر وعربدة، ثم نهض في الصباح، وفي عزمه أن يقوم بمجزرة جديدة تشبه مجزرة البارحة، وهذه المرة في منطقة هنانو في مدينة حلب أيضًا، ولما وصلت الطائرة إلى هدفها بدأ قيس يدفع البرميل نحو الباب ليهوي على رؤوس الآمنين، وقد شعر بثقل في دفعه قبيل وصوله إلى الباب فرجع إلى الوراء قليلًا ثم ركض نحو البرميل دافعًا له، وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد هوى البرميل وهوى معه قيس.

وبينما هو يهوي أخذ شريط الذكريات يمر أمام ناظريه منذ طفولته ثم شبابه وهو في المدرسة ثم تطوعه في الجيش، وخلال ذلك أخذت صور تعذيب العساكر تتراقص أمام عينيه، وآخر ما تذكره المجزرة التي قام بها البارحة، وفي هذه اللحظة وصل البرميل إلى الأرض فانفجر وأحال قيسًا قطعًا من اللحم المتفحم، ولم ينته الأمر عند هذا فنار الآخرة أشد وأنكى، وما كان الله ليضيع دعاء المظلومين وأنات الأرامل وآهات الثكالى وبكاء اليتامى.

انتهت.

حساء القطط

خرج أبو محمود الزبداني من بيته في إدلب متجهًا إلى المقر ثم إلى نقطة الرباط، فقد حان موعد نوبته التي ستستمر لثلاثة أيام، ثم يمضي أسبوعًا في الأعمال الحرة ليكسب رزقه حلالًا، فهو لا يريد أن يدخل جوفه أو جوف أسرته أي درهم حرام قد يؤدي إلى إبطال جهاده، فهو لا يزال يذكر الحديث النبوي الذي سمعه من أحد طلبة العلم في بداية جهاده عام 2012م، ذاك الحديث الذي يذكر غلامًا للنبي صلى الله عليه وسلم يدعى مِدْعم أخذ عباءة من الغنائم بدون إذن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قتل بعدها بسهم، فحُرم أجر الشهادة واشتعلت العباءة عليه نارًا في قبره.

وصل أبو محمود إلى مقره؛ حيث تجمع عدد من الشباب في سيارة نوع «بيكاب» حملتهم جميعًا وهم ينشدون:

لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحمى

لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلما

ولما وصلوا إلى النقطة أنزلوا معهم مؤنهم وشرابهم، فالماء غير متوفر في النقطة، ولذلك يجلبون معهم الماء، أما الوضوء فهو متعذر هنا، ولذلك يلجؤون إلى التيمم.

نزل الشباب في الخندق وتوزع بعضهم على فتحات الرصد والمراقبة، فيما جلس الباقون بانتظار موعد رصدهم على فتحات الرصد، وأثناء ذلك تجد بعضهم يقرأ القرآن أو يراجعه ويحفظه، وبعضهم يقرأ في كتاب معه، وغالبًا ما يكون الكتاب يتحدث عن الصحابة وبذلهم وتضحياتهم، والبعض الآخر ينشغل بإعداد الشاي ثم يجلس يشربها ولا يفعل أي شيء آخر، فيما يعبث من تبقى بجوالاتهم.

كانت نوبة أبي محمود هي الأولى، ولذلك كان واقفًا في الخندق واضعًا رأسه أمام فتحة الرصد والمراقبة، وهو يأمل أن يمر جندي للنظام في مرمى بندقيته فيكسب فيه أجرًا بنقله إلى الدار الآخرة وتخليص المسلمين من شره، إلا أن نوبته انتهت ولم يمر أحد، فقد كان جنود النظام النصيري يعرفون الأماكن المرصودة فيتجنبون المرور منها.

مرت الأيام الثلاثة سريعًا دون حدوث اشتباك مع الجيش النصيري، فقد كانت الجبهة التي يرابط فيها أبو محمود وإخوانه هادئة نوعًا ما، وعندما جاءت المجموعة الثانية رجع أبو محمود بنفس الطريقة التي جاؤوا فيها.

وعند وصوله إلى المقر وتفقده للرسائل التي وصلت إليه في جواله وجد رسالة قف لها شعر رأسه رعبًا، لم تكن الرسالة سوى قائمة المستلزمات المنزلية التي يشعر المرء أحيانًا لو كانت جبلاً لكانت أثقل من جبال الهملايا، ولو كانت نهرًا لكانت أطول من الأمازون، ولو كانت قصصًا لكانت أكثر رعبًا من أساطير أحمد خالد توفيق.

وعلى رأس القائمة «علبة من المساعد الغذائي» لابنته الصغيرة التي لم يتجاوز عمرها العام الواحد.

قرر أبو محمود أن يتجاهل أكثر ما في القائمة من الطلبات التي يمكن الاستغناء عنها أو تأجيلها، وبالطبع لا يمكن أن يتجاهل طعام حبيبته الصغيرة، ولذلك اتجه إلى أقرب صيدلية ليشتري لها ذلك.

ولما سأله الصيدلي عن عمر الصغيرة، أجاب: عام.
فقال الصيدلي: عذرًا، هذا النوع قد نفد من عندي، ولم يبق إلا ما يناسب لعمر عام ونصف.
فقال أبو محمود: لا بأس أعطني إياه، فقال الصيدلي: ستؤذي ابنتك؛ لأنه سيكون ثقيلاً عليها، وهنا لم يستطع أبو محمود الزبداني أن يتحمل فانفجر ضاحكًا.

شعر الصيدلي بحرج شديد وتسلط عليه الحياء والغضب في آن واحد، وقال: عذرًا أخي، لا أظن أني قلت شيئًا مضحكًا، فقال أبو محمود: المعذرة لم أقصد الإساءة، ولكن ما حدث كان رغمًا عني، فطفلتي الصغيرة التي قلت بأن هذا النوع من الطعام سيكون ثقيلاً عليها قد شربت وهي ابنة أسابيع ما لا تستطيع الآن أن تشربه!

اتسعت حدقتا الصيدلي، وقال له: ما الذي تقصده؟
فقال: أعرفك بنفسي، أنا أبو محمود الزبداني، وقد كنت من المحاصرين هناك، وقد خرجت من هناك في الشهور القليلة الماضية، ولا أظنه يخفى عليك ما كنا نعانيه من الجوع والتعب وندرة الغذاء، حتى اضطررنا إلى أكل كل شيء أحله الله.
فقال الصيدلي: تقصد كل شيء حرَّمه الله.

فقال: لشدة الجوع والاضطرار لم يبق حيوان محرمًا، بل صاروا جميعًا مما أحله الله،

فأكلنا الكلاب والقطط واليرابيع والحشائش والأعشاب وأوراق الشجر.

وذات يوم ولدت زوجتي في ظل الحصار الخانق، وكنت أسعى بكل ما أوتيت من قوة لأحصل لها على بعض ما تقتات عليه لتحفظ نفسها وترضع الصغيرة.

ومرت بضعة أسابيع وانقطع حليبها من شدة الجوع، وصارت الصغيرة تبكي بشدة من الجوع، بكاء تقطع له نياط قلبي، فخرجت وأنا ملهوف أستغيث بالله وأسأله رزقًا لتلك الفتاة التي لا حول لها ولا قوة.

وأخذت أجوب القسم المحرر من الزبداني وأفتشه شبرًا شبرًا، وفجأة لمحت صيدًا ثمينًا، هرة شقراء، ولم تكن سمينة بالطبع، لكنها تكفي لسد الرمق، فاحتلت حتى أمسكت بها، وانطلقت فرحًا بها إلى أهل بيتي، ولما طرقت الباب أخفيت القطة حتى لا تراها زوجتي فترغب عن أكلها.

ففتحت الباب، فقلت لها: ناوليني سكينًا، وفي نفسي أن أذبح الهرة وأسلخها خارجًا ثم أقطعها، فلا تعلم زوجتي أي نوع هذا اللحم.

فقالت: ماذا أحضرت؟ فقلت: هاتي سكينًا وستعلمين بعد ذلك، وهنا أصدرت القطة مواء، فأفسدت علي خطتي، وانتبهت إلى ذلك، فقالت: ولماذا تخفيها عني؟ هل تحسب أن الجوع ترك لي خيارًا؟!

ثم ناولتني السكين فذبحتها وهيأتها ثم دفعتها لها، فوضعتها في القدر وأوقدت عليها النار، وأكثرت مرقها، فلما نضجت غرفت من القدر في صحن وجعلت تبرد المرق ثم تسقيه الصغيرة، والطفلة تشربه وتتلمظ سعيدة به حتى شبعت فنامت.

فهل عذرتني الآن وعرفت سبب ضحكي؟
فتقدم الصيدلي، وقبل رأس أبي محمود، وطلب منه أن يأخذ العلبة مجانًا، إلا أن أبا محمود رفض ذلك وأبى إلا أن يدفع ثمنها، ثم أخذها وانطلق إلى بيته متجاهلًا باقي القائمة، وكأنه مجتمع دولي لا يبصر مجازر النظام ولا يعلم عنها شيئًا.

انتهت.

اللغة التي يفهمها العدو

الزمان والمكان: أيار / 2012 خان شيخون.

خرج سعدُ من بيته ذاهبًا إلى المقر، وفي طريقه التقى بصديقه زيد الذي كان زميله في الجامعة قبل اندلاع الثورة السورية، رحَّب سعد بصديقه زيد وقال له: أرى البشر باديًا على وجهك والسعادة تملأ محياك، فما الأمر؟ أسْعِدنا أسعَدك الله.
أجاب زيد: نعم، اليوم سيأتي إلى خان شيخون مجموعة من ((UN ليراقبوا ما يجري في سورية، وسنخرج بمظاهرة حاشدة لنبرهن لهم على سلميتنا ووحشية النظام الأسدي.

بدت علامات الخيبة على وجه سعد وهو يسمع كلام صديقه، ثم قال له: لا تفرح كثيرًا بهؤلاء المراقبين، فهم في الحقيقة شركاء في جرائم الأسد، إن المجازر التي ارتكبها النظام النصيري خلال الفترة الماضية كافية ليراها الأعمى ويسمع بها الأصم ويتحدث عنها الأخرس، فلماذا يرسلون مراقبين إلا لخداع الشعوب والضحك عليهم، إن هذا النظام يا صديقي نظام مجرم وحشي لا يتورع عن فعل أي شيء في سبيل التمسك بكرسيه الزائل، ولذا أنصحك ألا تغامر وتخرج في المظاهرة أمام حاجز الجيش، فأنا واثق أنه سيطلق النار عليكم ولن يردعه وجود هؤلاء المراقبين، وإذا أردت الحل الأمثل فتعال لتنضم إلى ركب الجهاد المسلح، فالقوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها هذا النظام الغاشم، ونحن لم نحمل السلاح إلا بعد أن اضطرنا هو إلى ذلك طوال الأشهر الماضية، تخرج المظاهرات تطالب بإسقاط النظام بشكل سلمي ويتلقاها الجيش والشبيحة بالرصاص الحي ويسقط عشرات الشهداء في كل جمعة، والمجتمع الدولي مجتمع الكذب والنفاق لا يحرك ساكنًا، بل يدعم النظام ويساعده. قال زيد: إن ما ذكرته عن وحشية النظام وإجرامه صحيح تمامًا، ولكن لا أظن أنه يتجرأ على إطلاق النار علينا أمام المراقبين الدوليين، وأنا مصرٌ على الخروج في المظاهرة أمام حاجز الجيش بطرف المدينة.

سعد: بل سيفعل، وأسأل الله أن يحميكم، ولو كان لي من الأمر شيء لمنعت الناس من الذهاب إلى هناك.

وبعد ساعات تناقل الناس خبر وصول المراقبين، واحتشد المئات من الناس يهتفون

بإسقاط النظام، وسارت المظاهرة باتجاه حاجز الجيش لاستقبال المراقبين، ولما رأى عناصر الحاجز مئات الناس قادمين نحوهم وهم ينادون بإسقاط النظام فتحوا النار عليهم أمام لجنة المراقبة الدولية، وسقط عشرات الشهداء والجرحى، وهاج الناس وماجوا، وعم الاضطراب المكان، ووصل خبر هذه المجزرة إلى المجاهدين في مدينة خان شيخون وما حولها، فجهزوا أنفسهم وطلبوا المؤازرات من المدن حولهم من الهبيط ومدايا وركايا وساروا للأخذ بثأر الشهداء الأطهار.

فيما انشغل الناس بإسعاف الجرحى ونقل الشهداء إلى أهليهم ليودعوهم ويُسلِّموهم لأرحم الراحمين.

خرج سعد على رأس مجموعة من المجاهدين إلى المعركة، واشتبك مع عناصر النظام الذين استقدموا تعزيزات خوفًا من رد فعل المجاهدين، ودارت معركة حامية الوطيس تمكن المجاهدون خلالها من تدمير دبابة (T72) وقتل العشرات من عناصر النظام، ورصد سعد مجموعة من العناصر متحصنة في مبنى ولا يمكن قتلهم إلا بالاعتلاء على أحد أسطح المنازل.

أراد سعد أن يصعد على أحد الأسطح ليضرب بقذيفة (RBG)، فخرج له رجل طاعن في السن وطلب منه ألا يضربهم من سطح منزله فهو يخشى أن يقوم النظام بقصف منزله.

استجاب سعد وأخذ يبحث عن مكان آخر، وفي كل مرة يعتذر سكان المنزل، فوحشية النظام وهمجيته لا مثيل لها، وفجأة سمع صوتًا يناديه، التفت فإذا بوالد صديقه زيد .

أقبل سعد مسَلمًا على والد صديقه، وقبل أن يسأله عن ولده زيد، قال له: لقد استشهد زيد يا بني، وأريد منك أن تضرب هؤلاء الكفرة من فوق سطح منزلي ليذوقوا عاقبة جريمتهم، هيا يا بني تقدم واستعن بالله عليهم.

أقبل سعد حتى دخل الدار، وسأل والد زيد: أريد سلمًا أصعد عليه إلى السطح، فقال له والد زيد: لا والله يا ولدي لن تصعد إلا على كتفي، فأنتم المجاهدون تستحقون منا كل إكرام وإجلال.

حـاول سـعد أن يتملـص مـن طلـب والـد صديقـه إلا أنـه رفـض، وصعـد زيـد السـطح وضـرب عناصـر الجيـش بثـلاث حشـوات أوقعتهـم مـا بيـن قتيـل وجريـح، ثـم نـزل ودخـل إلـى غرفـة في دار والـد صديقـه الـذي فـرح فرحًـا عظيمًـا بعـد هـلاك العناصـر المجرميـن، وقـال وهـو واقـف على رأس ولـده الشـهيد: الآن يـا ولـدي سـأدفنك وأنـا مرتـاح، فقـد أخـذ الأبطـال المجاهـدون بثـأرك، وأودعـوا رصاصهـم في رؤوس الكفـرة وصدورهـم. والحمـد لله فشـهداؤنا في الجنـة وقتلاهـم في النـار، والعاقبـة للمتقيـن، ونصـر الله آت ولـو بعـد حيـن.

انتهت.

البس هذه جعبة أبيك

كان إقبال يعمل نجارًا في منطقة الصالحين في حلب، وقد استأجر حانوتًا وضع فيه آلات النجارة وأخذ يعمل ليطعم زوجته وأولاده حلالًا، فلطالما حذره أبوه من خطورة أكل الحرام وبين له سوء عاقبته.

كان لإقبال أربعة من الأولاد؛ صبي اسمه أحمد عمره أحد عشر عامًا، وثلاث بنات أروى وعمرها ثمانية أعوام وفاطمة وعمرها ستة أعوام وليلى وعمرها عامان.

ولما دخل الثوار مدينة حلب وحرّروا منطقة الصالحين وقتلوا العميد عليّ النصيري والذي كان رئيسًا لمخفر الصالحين وكان سيئ السمعة جدًا قرر إقبال أن ينضم إليهم. فالتحق بلواء التوحيد وخاض معه عددًا من المعارك في أرجاء مدينة حلب، حرّر خلالها اللواء عددًا من المناطق ثم توجه لتحرير مدرسة المشاة شمالي حلب، وكان من الواضح أن تحريرها صعب؛ فهي استراتيجية جدًا لدى الجيش النصيري مع سعة مساحتها وضعف الأسلحة الموجودة لدى المجاهدين.

خاض لواء التوحيد معارك كثيرة على تخوم مدرسة المشاة، وفي كل مرة يسقط منه شهداء وتهلك أعداد من العدو، حتى كانت المعركة الأخيرة التي منَّ الله فيها على المجاهدين بالنصر وتحررت مدرسة المشاة، وأثناء تمشيط المدرسة أغار الطيران على مجموعة من المجاهدين كان إقبال أحد أفرادها فسقط إقبال شهيدًا وجرح آخران. وقامت كتيبة الإخلاء بإسعاف الجريحين ونقل جثة إقبال من أرض المعركة.

كانت زوجة إقبال تنتظره بشوق، وقد غمر الفرح قلبها عندما وصل إلى مسامعها أن مدرسة المشاة قد حُررت، فقامت مسرعة ورتبت البيت وهيأته وتزينت وأخذت تنتظر زوجها على أحر من الجمر.

لم يطل انتظارها طويلًا حتى طُرِق الباب، فقامت لتفتح الباب فسمعت أصوات رجال يصيحون: أحمد يا أحمد، خذ طريقًا يا بني، امتلأ صدرها بالخوف وشعرت أن مكروها قد أصاب زوجها.

فتح أحمد الباب ليُدْخل رفاق والده جثة والده وهي معطرة بدمائها، بدا وجه إقبال

باسـمًا مشـرقًا وكأنـه يغـط في نـوم عميق.

قام المجاهدون بتعزية أحمد ووالدته ثم خرجوا قليلًا لتودع المرأة زوجها.

خرجـت المـرأة بعـد أن خـلا البيـت مـن المجاهديـن وألقـت ببصرهـا إلـى زوجهـا، ثـم انكبـت عليـه تقبلـه وتبكـي ويبكـي أحمـد وأخواته.

وبينمـا هـي تمـرغ وجهها في صـدره رأت جـزءًا مـن ورقـة خارجـة مـن جعبتـه، ففتحتهـا فـإذا وصيتـه قـد كتـب فيهـا: «بسـم الله الرحمـن الرحيـم، هـذا مـا أوصـى بـه إقبـال بـن أحمـد النجـار: إننـي أشـهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه وأن محمـدًا عبـده ورسـوله، وأشـهد أن عيسـى عبـد الله ورسـوله، وكلمتـه ألقاهـا إلـى مريـم وروح منـه، وأشـهد أن الجنـة حـق والنـار حـق، وأن الله يبعـث مـن في القبـور.

أوصـي إخوانـي المجاهديـن بمتابعـة الجهـاد حتـى إسـقاط هـذا النظـام المجـرم ورفـع رايـة لا إلـه إلا الله.

وأوصيهم بزوجتي وأولادي خيرًا، أحسنوا إليهم ولا تهملوا تفقد شؤونهم.
وأوصـي زوجتـي الحبيبـة بالصبـر على فقـدي وأن لا تجـزع ولا تشـق جيبًـا ولا تلطـم خـدًا ولا تدعـو بدعـوى الجاهليـة.

أوصيـك أيتهـا الحبيبـة أن تربـي أولادي على حـب الجهـاد وبغـض الكفـار، واعتـن بأحمـد عنايـة جيـدة حتـى إذا شـب أكمـل الطريـق الـذي بدأتـه مجاهـدًا في سـبيل الله.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

زادت هـذه الكلمـات في وصيـة زوجهـا مـن حزنهـا وألمهـا، وأخـذت الدمـوع تـزداد غـزارة مـن عينيهـا، ثـم تماسـكت وتجلـدت وقامـت بنـزع الجعبـة عـن زوجهـا، وأذنـت لرفاقـه بالدخـول مـن أجـل حملـه إلـى مقبـرة الشـهداء.

ولما دخل الرجال، قالت لهم: أين بارودة إقبال؟
فقالوا: هي معنا في السيارة.
فقالت: أريد الاحتفاظ بها وبجعبته، وإن أردتم ثمنها أعطيتكم.

فقالوا: لا، هذه الأشياء هدية لأولاد أخينا إقبال، وأعطوها البارودة وأخذوا جثة إقبال وعيون أطفاله الصغار تمطر لؤلؤا وهي تودعهم.

حملت زوجة إقبال الجعبة بدمائها والبارودة بأتربتها ووضعتهم في خزانة الملابس الخاصة بزوجها وأقفلتها.

ومرت الأيام وصار عمر أحمد خمسة عشر عاما وقوي عوده واشتد ساعده، وأخذ يتغيب عن البيت، فإذا سألته أمه: أين كنت؟ قال: كنت عند بعض رفاقي.

وأحست الأم أنه يخفي شيئًا عنها، وخشيت أن يكون ابنها قد صاحب رفاقًا سيئين وانحرف معهم، ولكنها عادت إلى نفسها وطردت هذا الخاطر من رأسها، فهي قد أولت أحمد كامل عنايتها منذ وفاة والده، فكانت تتابع صلاته في المسجد دائمًا، وقد حفظ خمسة عشر جزءًا من القرآن في المعهد المجاور لبيتهم.

وأخيرًا قررت أن تفتش هاتفه الجوال بعد أن ينام، وبالفعل لما عاد أحمد إلى البيت جلست أمه بقربه وأخذت تسترق النظر حتى علمت رمز فتح هاتفه، ولما خلد أحمد إلى النوم أخذت هاتفه ثم فتحته، وأخذت تطالع محادثاته مع رفاقه.

فاكتشفت أن ابنها انضم إلى بعض الفصائل المجاهدة، وأنه يرابط معهم، ولذلك يتغيب عن البيت، فاطمأنت لذلك وحمدت الله.

ولما طلع الفجر أيقظت الأم ابنها أحمد فذهب وصلى الفجر في المسجد، ولما رجع إلى البيت كانت أمه في انتظاره، وما إن وصل حتى قالت له: تعال معي أريد أن أعطيك شيئًا.

لم يدر أحمد ما هو الشيء الذي ستعطيه أمه إياه، ولكنه سار معها حتى دخلت إلى غرفة النوم، وقالت له: خذ هذا المفتاح وافتح هذه الخزانة.

فتح أحمد الخزانة ليرى جعبة مليئة بالدماء القديمة وبارودة مكسوة بالغبار.
قالت له أمه: البس هذه الجعبة، وخذ هذه البارودة، وأكمل طريق أبيك، وإياك أن تخفي عني شيئًا بعد الآن.

نظـر أحمـد إلـى أمـه بحـب يخالطـه إعجـاب وإكبـار، وقـال: أحقًـا مـا تقوليـن يـا أمـي؟ حقًـا لـن تمانعـي مـن سـلوكي طريـق الجهاد؟
فقالت له أمه بحزم: وهل ربيتك إلا لذلك؟
اذهب يا ولدي فاثأر لرب ودين، وإياك أن تتخاذل أو تتراجع.

امض يا ولدي؛ فإما أن تقر عيني بالنصر أو بالشهادة.
قبـل أحمـد يـد أمـه وجبينهـا، ثـم لبس جعبـة أبيـه وأخـذ بارودتـه، وانطلـق إلـى الجبهة، وهـو يقـول لوالدتـه: لـن تسـمعي إلا ما يسـرك إن شـاء الله.

انتهت.

إن ربك لبالمرصاد

عاد ماهر إلى منزله ووجهه ملطخ بالدماء، فقد تمكن المتظاهرون منه هذه المرة، فكسروا أنفه وأسالوا دمه، ولم تغن عنه الهراوة التي كان يحملها ليضربهم بها، فقد سلبوه إياها وانهالوا عليه ضربا بها، وكذلك لم يغن عنه عناصره فقد فروا وتركوه لما رأوا جموع المتظاهرين الغاضبة تتجه نحوهم.

استقبلته زوجته مذعورة وأخذت تصيح وتولول، وكذلك كان هو يسب ويشتم المتظاهرين والثورة.

ولم تمض ساعة حتى جاءه عناصره من الشبيحة يعتذرون إليه ويسوغون فرارهم ويشتمون المتظاهرين، فأخذ يهددهم ويتوعدهم بأنه سيحرمهم راتبهم إن تكرر ذلك منهم، ورافق ذلك سيل من الألفاظ البذيئة المقذعة وجهها إليهم.

كان ماهر يقف دائما أمام مساجد منطقة الشعار التي ينطلق منها المتظاهرون تحيط به مجموعة من الشبيحة؛ فإذا خرج المتظاهرون وبدؤوا بالهتافات والتكبير قام هو وقطعان الشبيحة ورجال الأمن بقمعهم وتفريق مظاهرتهم، وكان من عادته هو وأفراد مجموعته إذا ألقوا القبض على متظاهر أن يقوموا بسرقة جميع ما يحمل من أموال أو أشياء أخرى كالهاتف الجوال والساعة وحتى الحذاء إذا أعجبهم، ثم يقوموا بتسليمه لسيارة الشرطة التي تسلمه بدورها إلى أفرع الأمن؛ حيث يلقى من التعذيب ما تشيب لهوله الولدان.

أمضى ماهر مع أفراد مجموعته فترة من الزمن هي بضعة شهور؛ ثم تمكن الجيش الحر من دخول مدينة حلب وحرر حي صلاح الدين ثم السكري وأخذ يتقدم باتجاه الشعار.

شعر ماهر بخوف واضطراب ولم يدر ما يفعل، أيهرب من المنطقة ويترك بيته وحيه أم يبقى وعندئذ سيقبض عليه الثوار ويعدمونه؟ فقد بدا واضحا للعيان أن نظام بشار يتهاوى.

جمع ماهر أفراد مجموعته، وأخذ يستشيرهم، فقال له أحدهم: الأمر هين، نعلن

انشقاقنا عن الشبيحة وننضم إلى الثورة، وبصراحة «حسب السوق نسوق»، ثم أضاف: عندي صديق قديم من عندان سوف أتصل به الآن، ونرتب أمر انشقاقنا. فرح ماهر بهذا الاقتراح، وطلب من العنصر أن يعجل بذلك قبل وصول الجيش الحر إلى الشعار، فسارع العنصر بالاتصال بصديقه، وأخذ يتكلم بلهجة يظهر فيها الندم والحزن ويمدح الثوار ويلعن الأسد، ثم طلب منه الحماية لمجموعة من الشبيحة تريد الانشقاق عن الأسد، ففرح صديقه بذلك وطلب منه مقطعا مصورا.

فقام ماهر على الفور وأحضر علما أخضر من الأعلام التي كان صادرها من المتظاهرين، ووضعه خلفه على الحائط، ثم وقف في المنتصف، ووقف عن يمينه ويساره أفراد مجموعته من الشبيحة، وأعلن انشقاقه قائلا: أنا الشبيح ماهر أبو النار أعلن انشقاقي مع أفراد مجموعتي عن نظام الأسد المجرم والتحاقي بثورة الشعب السوري، ثم صاح: تكبير، فردد أفراد مجموعته خلفه: الله أكبر الله أكبر.

ثم أرسل العنصر هذا المقطع إلى صديقه عبر السكايب، وحصل ماهر وأفراد مجموعته بذلك على الحماية، ولم يتعرض لهم الثوار بأذى.

قام ماهر مع أفراد مجموعته بالمشاركة في ضرب مخفر الشعار، واستولى منه على بعض الأسلحة، وقام بتشكيل كتيبة عسكرية أخذ يضم إليها الشبيحة القدامى، ويوفر لهم الحماية.

كانت كتيبة ماهر الذي تلقب بأبي الغضب كتيبة لا عمل لها سوى خطف الناس سرا وسلبهم وسرقة البيوت وتعاطي المخدرات والحشيش، واستمرت الكتيبة على ذلك قرابة السنتين؛ حيث غادر كثير من أفرادها إلى تركيا بعد اشتداد حملة البراميل على مدينة حلب.

فيما رأى أبو الغضب هذه الحملة فرصة له فكان يستغل نزوح الناس من أحيائهم ومناطقهم ويسرق البيوت والدكاكين، ثم يبيع المسروقات ويعطي أفراد مجموعته نصف المال ويأخذ النصف الثاني كاملا له، ثم يجمعه ويدخره.

وبالإضافة إلى جرائم ماهر هذه فقد كانت له جريمة سرية لا يعرفها أحد وهي سرقة الأموال التي تصل إليه دعما للجرحى والقتلى؛ فقد كان يرفع أسماء القتلى

والجرحى وجميعهم قد أصيبوا بالقصف، فماهر ومجموعته لم يشاركوا في أي معركة، ويأخذ عليهم دعما بأسمائهم، ثم لا يعطيهم منه شيئا، بل يكتفي بإعطاء خمسة وعشرين ألف ليرة مرة واحدة لعائلة من قتل معه، وخمسة آلاف ليرة سورية للمصاب كل شهر.

ومرت الأيام وأحكم النظام الحصار على مدينة حلب للمرة الثانية بعد أن تمكن جيش الفتح من كسر الحصار أول مرة، واشتد القصف جدا، وأخذت المناطق تتساقط واحدة تلو أخرى بيد النظام النصيري، حتى لم يبق مع الثوار إلا المنطقة الممتدة من جسر الحاج إلى صلاح الدين، وبدأ كثير من الناس يخرجون من مناطق الثوار إلى مناطق النظام، وفيهم كثير ممن كان سابقا حاملا للسلاح، وكان من بين الخارجين معظم أفراد كتيبة ماهر.

أما ماهر فقد رفض أن يخرج؛ لأنه عاشر النظام قبلا ويعلم أنه قد رضع من ثدي الغدر، وشب في أحضان نكث العهود والمواثيق.

لم تمض سوى بضعة أيام حتى هجَّر النظام من تبقى في حلب إلى الريف وإدلب، وخرج ماهر في رتل التهجير في سيارته وبقربه زوجته، وفي حجرها ابنه الذي بلغ من العمر أربع سنوات ومعه عدد من الأسلحة، ولما وصل ماهر إلى الريف استأجر بيتا لمدة شهر واحد، وأخذ يرتب أموره ليسافر إلى تركيا وهو يحلم بالاستمتاع بالمال الذي جناه من الحرام طوال السنين الماضية.

أخذ ماهر يبيع ما أخرجه معه من قطع الأسلحة باستثناء مسدس كان يحبه جدا ويضعه دائما على خصره متفاخرا به، فقد أجل بيعه إلى ما قبل خروجه مباشرة، ثم باع سيارته، واتفق في يوم السبت مع المهرب أن يكون موعد السفر إلى تركيا يوم الاثنين.

وفي يوم الأحد كان ماهر مشغولا مع زوجته بترتيب أمورهما من أجل السفر، ثم طلب ماهر من زوجته المسدس لينظفه ثم يبيعه، فأحضرت له زوجته مسدسه، فقام بفكه وتنظيفه، ثم لقمه وأخذ ينظر إليه والحزن يعتصر قلبه على فراقه، وبينما هو كذلك إذ نادته زوجته، فترك المسدس على المنضدة وقام إليها، فجاء الولد الصغير وأمسك المسدس وأخذ يلعب به، فسمع ماهر صوت ابنه فجاء مسرعا

وصاح به، فاضطرب الولد وخاف وضغط على الزناد فخرجت طلقة استقرت في قلب ماهر فسقط قتيلا.

لم ينفعه ما جمع من أموال وما نهب من بيوت وما سرق من حوانيت، بل باء بإثم ذلك جميعا.

انتهت.

لن أثأر لنفسي

كان علـيٌّ يحيـا حيـاة عاديـة قبـل انـدلاع الثـورة السـورية، وكان يـرى الظلـم العظيـم الـذي يقـع على شـباب أهـل السـنة في سـورية، ولكنـه لـم يكـن يقـدر على فعـل شـيء، فهـو ليـس سـوى فـرد واحـد، وكـم آلمـه عندمـا طرقـت دوريـة للأمـن بهمجيـة شـديدة بـاب جـاره ثـم دخلـت الدوريـة البيـت بوحشـية واقتادتـه مـن فراشـه أمـام زوجتـه وأولاده، ولـم تـرع حرمـةً للبيـت والأطفـال والجـوار، ونشـرت الرعـب والخـوف في أرجـاء العمـارة.

وقـد سـأل علـي بعـد ذلـك عـن سـبب اعتقـال جـاره بهـذه الطريقـة الوحشـية، فأُخبـر أنـه كان يمتلـك كتبًـا لابـن تيميـة، وهـي كتـب ممنوعـة.

لـم يكـن علـي قـد سـمع بابـن تيمية مـن قبـل، ولكنـه مـن خـلال معاشـرته لجـاره كان يراه دمـث الأخـلاق ملتزمًـا بدينـه، طيّـب المعشـر، محبًّـا للعلـم، فقـد كان في السـنة الثالثـة في كليـة الهندسـة الميكانيكيـة، وقـد حـزن جـدًّا لمـا أصابـه، وشـعر ببغـضٍ شـديد تجـاه تلـك الحيوانـات التـي ترتـدي أجسـاد البشـر وتـروّع الآمنيـن وترهبهـم.

وبعـد عاميـن خـرج الجـار مـن المعتقـل فذهـب علـي ليسـلم عليـه ويهنّئـه بالسـلامة، فهالـه مـا طـرق أذنيـه مـن مظالـم تحْـدث في السـجون وتعذيـب وحشـي يتعـرض لـه المعتقلـون.

ولكـن عليـا لـم يسـتغرب عندمـا ذكـر لـه جـاره الكفـر الشـنيع الـذي يتلفـظ بـه المجرمـون ابتـداء بمديـر الفـرع وانتهـاء بالسـجانين، فقـد سـمع مثلـه أو أسـوأ منـه عندمـا كان مجندًا أثنـاء مـا يسـمى «خدمـة العلـم الإلزامية».

ولما انتهى الجار من حديثه، قال له علي: هل تسمح لي أن أسألك سؤالًا؟
فقال: تفضل.
قال: من هو ابن تيمية الذي سجنت لأجل كتبه؟ وعلى ماذا تحتوي كتبه؟
فتبسـم الجـار، وقـال: ابـن تيميـة عالـم مـن علمـاء المسـلمين، تـوفي قبـل قرابـة سـبعمائة عـام، وكان حريصـا على التمسّـك بالكتـاب والسـنة وفهمهمـا فهمًـا صحيحًـا بعيـدًا عـن الشـركيّات والبـدع والخرافـات، كمـا كان شـديد الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، وكثيـرًا مـا كان ينكـر على الأمـراء في عصـره إذا جـاروا وحـادوا عـن الحـق، ولذلـك

يكرهـه هـؤلاء المجرمـون ويمنعـون تـداول كتبـه.

امتـلأ قلـب علـي بكـره هـؤلاء الجهلـة الذيـن يريـدون أن يبقـى النـاس في ظلمـات الضلالة والخرافـات حفاظًـا على مصالحهـم الشـخصية، وودّ لـو أنـه يسـتطيع أن يفعل شـيئًا.

ومـرّت الأيـام، وشـبّت نـار الثـورة في درعـا، ثـم أخـذت ترتفـع حتـى وصلـت إلـى حلـب، وشُـكّلت في حلـب تنسـيقيات مـن أجـل تنظيـم المظاهـرات المطالبـة بإسـقاط النظـام، بعـد أن واجـه هـذا النظـام المجـرم مطالـب الإصـلاح بالحديـد والنـار وفتـح للمطالبيـن بالإصـلاح المعتقـلات والسـجون وسـلّط عليهـم زبانيتـه بأنـواع العـذاب.

انضـمّ علـي إلـى تلـك التنسـيقيات، وكان يشـارك مـع جـاره الـذي سـجن قبـلًا بتهمـة حيـازة كتـب ابـن تيميـة في المظاهـرات التـي كانـت تخـرج مـن المسـاجد بعـد صـلاة الجمعـة.

وكان النظـام المجـرم في أول الأمـر يواجـه مظاهـرات حلـب بالضـرب بالهـراوات وعصـيّ الكهربـاء وإطـلاق النـار بشـكل كثيـف في الهـواء؛ لأنـه يخشـى مـن سـقوط شـهداء في حلـب وبالتالـي تـزداد النقمـة عليـه وتشـمل المظاهـرات شـرائح جديـدة في المجتمـع، إلا أن الحقـد الأسـود والوحشـية غلبـت على النظـام النصيـري وأطلـق الشـبيحة النـار بشـكل مباشـر على المتظاهريـن، فسـقط عـدد مـن الشـهداء كان مـن ضمنهـم صديـق علـي.

حـزن علـيٌّ على صديقـه جـدًّا، وشـعر أن براكيـن الغضـب قـد تفجّرت في صـدره، فأخـذ يحرّض النـاس بشـكل سـري على المظاهـرات، ويخـرج متلثما في المظاهـرات يهتف بسـقوط النظام، ويـردّد المتظاهـرون مـن خلفـه. وفي إحـدى المظاهـرات الليليـة مـرّ علـي أمـام صاحب كشـك يبيـع الدخـان، وكان كلٌّ منهمـا يعـرف الآخـر، فقـال لـه علـي: هلـمّ شـاركنا، فأجابـه: أنتـم مخرّبـون تريـدون دمـار البلـد، فأعـرض علـي عنـه وتابـع مسـيره وهتافـه.

وبعـد انتهـاء المظاهـرة عـاد علـي إلـى بيتـه متعبًـا منهـكًا، ومـا إن وضـع جنبـه على السـرير حتـى أسـلم عينيـه للرقـاد، وقبيـل الفجـر سـمع علـي طرقًـا شـديدًا على البـاب، فعلـم أن بائـع الدخـان قـد بلّـغ عنـه رجـال الأمـن، وأخـذ يفكـر في طريقـة للهـرب، ولكـن لـم يلبـث رجـال الأمـن إلا قليـلًا حتـى اقتحمـوا الـدار وقبضـوا على علـي، وأوسـعوه شـتمًا وضربًـا، واقتـادوه إلـى فـرع الأمـن العسـكري.

مكث علي في الفرع قرابة الشهر، ذاق خلالها أنواع الظلم والأذى، فطوال الشهر بقي عريانًا إلا من سراويل داخلية، وكل يوم هناك حفل للتعذيب يوطأ خلالها رأسه بالنعال، ويقال له بتهكّم: «بدكن حرية هي حرية»، ويضرب بالأكبال حتى تسيل الدماء من أنحاء جسده ثم تلتهب جروحه، ولا يوجد من يداويها، بل يتعمد السجان أن يضربه عليها.

خرج علي بعد شهر من الفرع، وهو أشد ما كان غضبًا، ولم يكن غضبه على السجانين والضباط بأقل من غضبه على بائع الدخان الذي وشى به إلى فرع الأمن العسكري، ولكن ما الذي يمكن أن يفعله، فحلب ما زالت تحت سيطرة النظام بشكل كامل.

لم تمضِ سوى بضعة شهور حتى دخل الثوار حلب المدينة من صلاح الدين، ومباشرة انضم علي إليهم، ثم كان على رأس حملة توجهت لتحرير منطقة السكري من قبضة العدو النصيري، وقد نجحت تلك الحملة وانسحب النظام من السكري وجسر الحج وسيطر عليها الثوار.

وهنا تذكر عليٌّ بائع الدخان الذي وشى به، وكان كشكه يقع بالقرب من حديقة السكري، فأرسل بعض المجاهدين ليقبضوا عليه ويحضروه قبل أن يهرب.

انطلق خمسة من المجاهدين إلى بائع الدخان فقبضوا عليه وساقوه إلى علي الذي كان يتحرّق شوقًا للأخذ بثأره من هذا الجاسوس الخسيس، كان يريد أن يقطّعه بيده وأسنانه.

ولما أُحضر الجاسوس بين يديه ذليلًا صاغرًا تأمّله، ثم قال له: نحن مخرّبون يا مجرم!؟
ألم ترَ إلى جرائم النظام؟
ألم توقظ ضميرك دموع الأيتام والثكالى؟
ألم تحرّك نخوتك دماء الشهداء؟
أيها الوغد الحقير..

ثم رفع علي يده عاليًا في الهواء ليضرب بكلّ قوته وجه هذا الجاسوس، أغمض الجاسوس عينيه محضِّرًا نفسه لصفعة قوية، ولكن الصفعة لم تصل إلى وجهه،

وطـال انتظـاره، ثـم فتـح عينيـه فشـاهد عليًّـا قـد أنـزل كفّـه، ولمـا التقـت عينـاه بعينيه، قـال لـه: لا، لـن أضربـك غضبًـا لنفسـي، ولـن أثـأر منـك لمـا سـبّبته لـي مـن الظلـم والأذى، أنـا مجاهـد في سـبيل الله، وأريـد أن يبقـى أجـري كامـلًا غيـر منقـوص.

ثـم قـال لبعـض المجاهديـن: خـذوه إلـى القضـاء الشـرعي ليحكـم فيـه بشـرع الله، أمـا أنـا فلن أمسّـــه.

سـيق الجاسـوس إلـى القضـاء، وبعـد التحقيـق تبيـن أنـه وشـى بعـدد مـن المتظاهريـن فقبـض العـدو عليهـم وبعضهـم مـات في السـجن تحـت التعذيـب، فحكـم القضـاء عليـه بالإعـدام، فأعـدم ودفـن في مقبـرة الشـبيحة قـرب جسـر الحـج.

انتهت

دموع أرملة الشهيد

أوقفت سيارتي في إحدى قرى إدلب عندما سمعت المؤذن يؤذن بصوت ندي لصلاة العصر، وتوجهت لمسجد تشمخ مئذنته عاليا في السماء تناطح الغيوم ويعلو فوقها صوت المؤذن وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، هذه الكلمة العظيمة التي تملأ قلب المسلم فخرا وعزا واستعلاء بإيمانه فينظر إلى الطواغيت المتألهة في الأرض نظرة احتقار وازدراء، فهل هناك أسخف من كائن بشري لا يملك لنفسه حولا ولا قوة ولا يدري كيف تعمل أجهزة جسده، ثم هو بعد ذلك يزعم العلم والمعرفة، ويريد أن يشرِّع للناس من دون الله فيحل لهم ويحرم عليهم وفق أهوائه.

دخلت المسجد فوجدته مسجدا واسعا فسيحا تستقبلك ساحة تنتشر على جانبيها الموضآت، ثم قبلية المسجد المفروشة ببعض السجاد الذي عفا عليه الزمن وتآكل لطول السنين التي مرت عليه.

وقفت خلف إحدى السواري وركعت ركعتين ثم جلست انتظارا لإقامة الصلاة، كان واضحا في المسجد أن جماعة الدعوة والتبليغ أو الأحباب قد نزلوا ضيوفا في المسجد ليذكروا الناس بالله ويدعوهم إلى التوبة والإقبال على الله وفق برنامج محدد معروف لديهم لا يختلف عندهم باختلاف الأزمنة والأمكنة.

والحق أني أحب هذه الجماعة في الله لما أراه عندهم من الإخلاص لله وترك حظوظ النفس، ومحبة الخير للمسلمين والمسارعة إلى خدمتهم، وبغض الجدل والقيل والقال، ولست أزعم العصمة لها فهي جماعة بشرية لا تخلو من أخطاء البشر، ومع هذا ففيها خير عظيم جدا، وقد أنقذ الله بها كثيرا من الناس من النار، وانتقلوا من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن مستنقع الشهوات إلى طهر الإيمان.

لم تمض سوى دقائق حتى أقيمت الصلاة وسويت الصفوف وكبر الإمام وكبرنا وراءه، ولكلمة الله أكبر في قلب المؤمن معنى خاص يجعله يستصغر الدنيا وما فيها، فليست الأرض سوى ذرة صغيرة في هذا الكون العظيم الذي يدل على أن خالقه أعظم وأكبر من كل شيء.

وما إن انتهينا من الصلاة حتى قام أحد أفراد مجموعة الأحباب ومعه نسخة من رياض الصالحين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم شرع يقرأ في رياض الصالحين بعض الأحاديث، وكان مما قرأ قوله عليه الصلاة والسلام: «من زار مريضا أو عاد أخا له في الله ناداه مناد من السماء: أن طبت وطاب سعيك وممشاك وتبوأت من الجنة منزلا»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أن رجلا زار أخا له في الله، في قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملكا فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أخا لي في هذه القرية، فقال: هل لك من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحبه في الله، فقال: فإني رسول الله إليك، أن الله يحبك كما أحببته» ثم قال: إن من برنامجنا أن نقوم زيارات الآن لننال الأجر وتحفنا الملائكة، فمن يحب أن يستقبلنا في داره؟

نظرت إلى ساعتي، فوجدت أن الوقت لا يساعدني لأرافقهم في زياراتهم، وإلا فاتني الموعد الذي أنا مسافر لأجله، لكني شعرت بشيء في داخلي يجذبني إليهم ويدفعني إلى مرافقتهم في زياراتهم، وبما أن القاعدة الأصولية تقول: «لا يصار إلى الترجيح إلا عند تعذر الجمع» فقد خرجت واتصلت بصاحبي الذي أنا ذاهب إليه، وطلبت منه تأجيل الموعد ساعتين، فوافق، فأخذت أنتظر الأحباب عند باب المسجد، فلما خرج قسم منهم، اقتربت منهم وطلبت منهم مصاحبتهم في زيارتهم، فسروا بذلك وقالوا : على الرحب والسعة.

وكان منهم رجل من أهل القرية هو المقصود بالزيارة، وبدل أن نذهب إلى بيته اقترح قائلا: هاهنا رجل دمر الطيران الوحشي بناية له قبل أسابيع، فما رأيكم أن نذهب إليه ونواسيه وتطيبون خاطره بما علمكم الله من القرآن والسنة؟
فوافق الأحباب، وهذه عادتهم، فهم كالجمل الأنف ينقادون إلى الخير بيسر وسهولة.

سرنا بضع دقائق حتى وصلنا إلى دار على جانب الطريق، وقد انتصبت بقربها بعض أشجار السرو، وأحاطت بها عدة شجيرات من الزيتون.

طرقنا الباب فخرج رجل يتجاوز عمره الخمسين عاما، وما إن وقع بصره علينا حتى رحب بنا أجمل ترحيب، وكأننا من أصدقائه المقربين، ثم قال: تفضلوا أهلا وسهلا بكم.

دخلنا إلى غرفة أشار لنا إليها وأخذنا مجالسنا، ثم دخل الرجل، وقبل أن نبدأ

الحديث قال أحد الأحباب: إن لنا شرطا لا نقبل بسواه، فقال الرجل: وما هو؟ فقال: ألا تقدم لنا ضيافة سوى كأسا من الشاي فقط، ثم التفت إلي وقال لي: تفضل ذكرنا بالله يا شيخ، فقلت له: أنا مرافق لكم والحديث عندكم، وحسبي أن أستمع لدرر كلامكم وعذب مقالكم، إلا أن الرجل أصر علي أن أتكلم وقد وضعني بذلك في موقف محرج لا أحسد عليه، حيث إني لم أكن قد زورت في نفسي مقالة.

وبينما أنا أنقب في ذاكرتي عن بعض الأحاديث والآثار التي تناسب الموقف، وأنبش في محفوظاتي عما ينقذني من هول الموقف استأذن الرجل ليحضر الشاي، وكانت هذه فرصة عظيمة لي لأرتب أفكاري وأجهز كلمة في نفسي، ومع أن الرجل لم يغب وقتا طويلا إلا أن ذلك كان كافيا بالنسبة لي.

وبعد أن قدم الرجل الشاي جلس في زاوية الغرفة، وقال: تفضلوا مشايخنا، ومرة أخرى قال لي أمير مجموعة الأحباب التي أنا فيها: ذكرنا بالله، فبدأت بحمد لله والصلاة على رسوله، ثم التفتُّ إلى الرجل صاحب الدار وقلت له: قد بلغنا أن بناية لك قد قصفت ودمرت، فاعلم أخي أن الدنيا ليست بدار قرار والمؤمن فيها ممتحن، والبلاء ملازم له، ولك في نبي الله أيوب أسوة، وعليك بالصبر فهو يجعل المحنة منحة، والعذاب عذبا، والشدة رخاء، لما للصابرين عند الله من حسن الجزاء وعظيم الثواب.
فنظر إلي الرجل وقال: هل تعزيني بدمار بنايتي؟
فقلت: نعم،
فقال: اسمع يا شيخ: لم ينعم الله علي نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من قصف الكفرة تلك البناية وتدميرها.

فدهشت، ودهش كذلك المجلس أجمع، وقلت: كيف ذلك؟
فقال لي: لهذا قصة طويلة، وبما أن المشايخ رفضوا أي ضيافة إلا الشاي فلتكن هذه القصة التي سأحكيها لكم الآن ضيافة لكم، لقد عمرت هذه البناية من قرابة أربع سنين، وكنت أقوم بتأجيرها من النازحين الذين يفرون من مدنهم وقراهم خوفا من بطش النظام وطغيانه، وكنت أتقاضى إيجار البيت الواحد عشرة آلاف ليرة سورية، ثم رفعته إلى خمسة عشر ألفا، فعشرين ألفا، وكان من عادتي -وبئس العادة- أني أجعل العقد ستة أشهر فقط فإن مضت المدة ولم يأت مستأجر يدفع مبلغا أكبر جددت العقد، وإلا أخرجت المستأجر دون رحمة أو شفقة.

ومع كل موجة تهجير ونزوح جديدة كنت أزيد في طلب الأجرة وأستغل حاجة الناس واضطرارهم، ثم تنهد الرجل وقال: لست أدري أكان قلبي من الصخر أم كان الصخر كقلبي؟
ثم تابع قائلا: وفي يوم من الأيام جاءتني أرملة ومعها ثلاثة أطفال، لا يتجاوز عمر أكبرهم اثني عشر عاما، وطلبت أن تستأجر بيتا من تلك البيوت، وأخبرتني أن زوجها قتل عندما قصف النظام قريتهم، وشكت إلي ضعفها وفقرها وشدة حاجتها، إلا أن الرحمة لم تجد إلى قلبي سبيلا، وطلبت عشرين ألفا.

حاولت المرأة أن تجعلني أقلل من الأجرة شيئا، إلى أني رفضت، فانصرفت المرأة، وجاءتني بعد ساعتين ومعها شيخ، فأخذ يعظني ويقول لي: كن رحيما بالخلق يكن الله رحيما بك، لا تتاجر بآلامهم وجراحهم.

فقلت له: يا شيخ، إن لكل أصحاب صنعة وتجارة موسما، وموسمي هو موجات النزوح والهجرة.
فصدم الشيخ مما سمع، وقال لي: اتق الله، وإلا فوالله لن يبارك الله لك في مالك.
فقلت له: الملك ملكي، وأنا حر به، أتصرف كيف أشاء، وإن أحببت المرأة أن تسكن البيت بعشرين ألفا، وإلا فغيرها ينتظر.

فوافق الشيخ على مضض على ذلك، ثم خطب الناس يوم الجمعة وعرَّض بقصتي، وحث الناس على الصدقة، ومساعدة المرأة حتى جمع لي أجرة ستة أشهر، ودفعها إلي، وهذا ما كان يهمني فتعريضه بي في الخطبة لم يهز فيَّ شعرة.

وقبيل انتهاء الستة أشهر بلغني أن هناك منظمة تريد أن تستأجر أربع شقق في مكان واحد وتدفع أجرة كل شقة مائة دولار، فوجدتها فرصة لا تعوض، وأعلمت أربعة من المستأجرين بوجوب إخلاء الشقق بعد انتهاء الستة أشهر، وكانت المرأة من بينهم، فأخذت تبكي بدموع غزار، وتتوسل إلي ألا أفعل، وتذكرني زوجها الشهيد، وتستدر مني العطف بصغر أطفالها، وكأن قلبي جلمودا من الصخر، ولما يئست مني قالت: اللهم انتقم من كل من يتاجر بنا، ويستغل حاجتنا، ثم خرجت.

تواصلتُ مع المنظمة وأخبرتهم أن لدي أربع شقق وأنا مستعد لتأجيرهم إياها،

واتفقنا على مائة دولار لكل شقة، وحددت لهم موعد تسليم الشقق، وخرج النازحون المساكين مكرهين، وقمت بتنظيف الشقق وإعدادها.

وقبل حلول موعد تسليم المنظمة الشقق بثلاثة أيام قامت طائرة روسية بقصف البناية فدمرتها، وما إن رأيت الصاروخ ينقض على البناية حتى تذكرت دموع أرملة الشهيد، وكأني أسمع دعوتها بأذني، فخررت لله ساجدا أسأله العفو والمغفرة؛ فقد خشيت أن تغير الطائرة غارة على بيتي هذا عقوبة من الله على سوء أفعالي، وعاهدت ربي وأنا ساجد أن إذا سلمني لأكونن نعم المعين للأرامل والأيتام والنازحين والمهجرين.

فمنَّ الله علي وسلمني، وكان أول عمل لي بعد انصراف الطائرة هو البحث عن الأرملة وأطفالها الثلاثة، حتى وجدتها تسكن في خيمة لا تقي من حر ولا قر، فطلبت منها أن تسامحني، ثم استأجرت لها بيتا لمدة عام، ودفعت أجرته سلفا، وقدمت لها ما يسر الله من المال، وبنيت دارين بالمال الذي جمعته في السنين الماضية من أجرة البيوت وجعلتهما للنازحين يسكنون فيهما مجانا، كلما خرج نازح دخل آخر، والله لا آخذ منهم قرشا واحدا.

فقل لي بربك: أليس تدمير البناية نعمة من الله؟ فقام أمير مجموعة الأحباب، فاحتضنه وقبل رأسه وقال له: وأنا سأعطيك ضيافة، حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو: «من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه».

ثم ودعنا الرجل وانصرفت لأكمل سفري، وانصرف الأحباب إلى مسجدهم.

انتهت.

دماء على القميص الأصفر

نشأ الأخوان عمر وشادي في بيت واحد، فهما من أب واحد وأم واحدة، وكان شادي أكبر من عمر بسنتين، ومع ذلك فقد تقدما لنيل الشهادة الإعدادية سويا، فقد كان شادي مخفقا في دراسته وقد رسب سنتين في الصف التاسع، ثم رسب للمرة الثالثة عندما تقدم مع أخيه عمر، فيما نجح عمر بتفوق وأخذ شادي ينظر بعين الحسد إلى أخيه.

بعد ذلك تابع عمر دراسته وانصرف شادي للعمل في إصلاح السيارات.
ومرت الأيام وتمكن عمر من دخول كلية الهندسة في جامعة حلب، وعندما كان في السنة الثانية منها انتفض الشعب السوري، وكان لطلاب الجامعة وخاصة الكليات العملية النصيب الأوفى من المظاهرات المنددة بجرائم النظام، والمطالبة بإسقاطه.
ولم يكن عمر يشارك في شيء من ذلك، فقد كان لا يهتم سوى بدراسته.

وذات يوم عاد عمر إلى البيت ففوجئ بأخيه شادي يخبره بأنه انضم إلى قطعان الشبيحة الذين كانوا يقتحمون المظاهرات بأساليب وحشية لم يكن عمر قد علم عنها شيئا بعد.

فقال عمر لأخيه: اسمع يا شادي، أنا لا أحب المظاهرات، ولست أشارك فيها، ولكني في الوقت ذاته لست ضدها، والناس لهم الحق في أن يطالبوا بالتغيير.

فأجاب شادي: أي ناس هؤلاء؟ عملاء مندسون، يريدون أن يخربوا البلد.

دهش عمر لدى سماعه أخيه يردد كلاما كالببغاء، دون أن يعرف شيئا عن حقيقة الأمر.

وصرخ قائلا: عملاء مخربون؟! مدسوسون؟! ما هذا الهراء؟!

إن جميع أصدقائي بالكلية يخرجون في المظاهرات وهم من أسر معروفة مشهورة، وأصدقائي جميعا يحبون بلدهم ويريدون له الخير، وهم أفضل من الجهال الذين يتحكمون بالبلد وخيراته.

فقال شادي: أراك تتحدث كالمخربين، اسمع يا عمر، لئن رأيتك في مظاهرة فلن أتوانى عن ضربك واعتقالك.

صدم عمر مما قال له أخوه، وقال: أوتفعل يا شادي؟!
فقال: نعم أفعل، وأنت وأصدقاؤك وجامعتك فداء لحذاء السيد الرئيس.
شعر عمر بنفور شديد من أخيه، فتركه وانطلق إلى غرفته، وأقبل على دراسته بجد ونشاط.

ومرت الأيام وازدادت المظاهرات كثافة وانتشارا، وازداد الشبيحة وحشية وعنفا وهمجية في التعامل معها، وبدأ عمر يشعر ببغض شديد للشبيحة ورجال الأمن، وقرر أخيرا أن يشارك في المظاهرات، فكان يضع اللثام على وجهه ويخرج ليلا ينادي مع المتظاهرين، فمرة يقول: يا درعا حنا معاكِ للموت، وأخرى يقول: الشعب يريد إسقاط النظام، وثالثة يردد معهم: هي لله هي لله لا للسلطة ولا للجاه، حتى يأتي الشبيحة بعصيهم وهراواتهم وأسلحتهم النارية فيفرقون المظاهرات.

وتطور الأمر مع شادي فأصبح مسؤولا لأحد حواجز النظام النصيري، واتخذ لقب أبي حيدر، وطار صيته بين الناس، أنه شرير لا يعرف الرحمة، وشديد الأذى للناس.

ثم تطورت الأمور ودخل الجيش الحر إلى حلب، وسيطر على مناطق واسعة منها، ونشر قناصته على الأبنية العالية لقنص العساكر والشبيحة.

بقي عمر في بيته ضمن مناطق سيطرة النظام، ولم يلتحق بالعمل المسلح، فقد كان يريد أن يتخرج من جامعته أولا، ولكنه على تواصل دائم مع عدد من أصدقائه الذين تركوا جامعتهم والتحقوا بالجهاد.

وفي يوم من الأيام خرج عمر من بيته إلى الجامعة، وكان لا بد أن يمر في طريقه على الحاجز الذي تقع مسؤوليته على أخيه الشبيح أبي حيدر، وبينما هو ينتظر دوره في رتل السيارات التي أمامه ليمشي، شاهد أخاه وهو ينزل شابا جامعيا من إحدى الحافلات، ثم ينهال عليه ضربا وهو يسبه ويشتمه، ثم يأمر زبانيته أن يعتقلوه، ومرت السيارات، ومر عمر أيضا بسيارته، وحاول أن يكلم أخاه بشأن الشاب لعله يتركه، إلا أن أخاه قال له بفظاظة: انقلع أحسن ما أعتقلك وأضعك معه.

لم يكمل عمر طريقه، بل عاد إلى البيت وقد خيم الحزن على فؤاده، وتصدعت أركان قلبه لهول ما رأى وسمع من أخيه، وفكر أن ينتقم لهذا الشاب ولجميع المتظاهرين الذين يتعرضون لأذى من أخيه أبي حيدر.

وخاض عمر صراعا مريرا مع نفسه، إن المجرم الذي يريد أن ينتقم منه أخوه ومِن أمه وأبيه، وفي الوقت نفسه فقد ملأ الدنيا شرا وفسادا.

وقع عمر في حيرة شديدة من أمره، ولجأ إلى الله تبارك وتعالى يطلب منه التوفيق والهداية، ثم أخذ المصحف ليقرأ شيئا من القرآن، وأول ما فتحه وقع بصره على قوله تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) فقوي قلبه، واشتد عزمه، ثم قام بفتح النت ففوجئ بمقطع مسرب للشبيح أبي حيدر وهو يعذب رجلا مسنا ويأمره بأن يقول أن ربه بشار وماهر، فازداد غيظا على هذا الوحش البشري، وبدأ الترتيب من أجل إراحة المسلمين من شروره.

كان بالقرب من البيت مفرق مرصود من قناص الجيش الحر، إلا أن هذا القناص كان لا يطلق النار إلا على من يرتدي اللباس العسكري، ولذا كان من السهل على الشبيحة ورجال الأمن والعساكر المرور بهدوء واطمئنان وهم يرتدون ملابس مدنية.

قام عمر بالتواصل مع أحد أصدقائه وأخبره أن الشبيح أبا حيدر سيمر غدا في الساعة السابعة قبيل المغرب من أمام المفرق، ويجب أن يقوم القناص بضربه، فسأله كيف سنعرفه، وأنت تعلم أن الشبيحة يرتدون ملابس مدنية عند مرورهم من المكان المرصود لعلمهم أننا لا نستطيع تمييزهم وبالتالي لا نقنصهم.

فقال له: سيكون مرتديا قميصا أصفر فاقع اللون، وذلك في الساعة السابعة تماما، اتفقنا ؟
فقال له صديقه: على بركة الله.

في اليوم التالي اشترى عمر قميصا أخضر وآخر أصفر، وذهب إلى شادي وأهداه القميص، وطلب منه أن يلبسه ودعاه لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم قرب البيت.

ارتـدى شـادي قميصـه الأصفـر وارتـدى عمـر قميصـه الأخضـر وانطلقـا، وفي الطريـق حـاول عمـر أن يقنـع شـادي بتـرك التشـبيح، إلا أنـه وجـد منـه إصـرارا على متابعـة طريقـه حتـى يطهـر التـراب السـوري مـن جميـع الإرهابييـن بزعمـه.

ولمـا وصـل عمـر وشـادي إلـى المفـرق، كانـت السـاعة تشـير إلـى السـابعة تمامـا كمـا خطـط عمـر، أسـرع عمـر فقطـع المفـرق، ثـم تبعـه شـادي، ولمـا وصـل إلـى منتصـف المفـرق دوت رصاصـة قنـاص واخترقـت عنـق شـادي فسـالت دمـاؤه على قميصـه الأصفـر وسـقط قتيـلا.

نظـر إليـه عمـر وقـد فـارق الحيـاة، وقـال لـه: لقـد كنـت عزيـزا علـي حبيبـا إلـى قلبـي، ولكـن دينـي أحـب إلـي منك، وقـد نلـت جـزاء إجرامـك وتعديـك على حـدود الله وانتهاكك الحرمات.
انتهت.

طلب العلم في سجون النصيرية»

احتشد الطلاب في المعهد وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ويتعرف بعضهم إلى بعض؛ فقد كان معظم طلبة المعهد من المهجرين الذين أجبروا على ترك ديارهم والفرار بدينهم وأرواحهم من بطش النظام النصيري ووحشيته؛ فهذا من دراعا وذاك من حماة وثالثهم من بانياس والرابع من حلب، وأما الجالسان قرب الباب، فأحدهما من الرقة والثاني من دير الزور، وأمامهما شاب من دمشق.

كان معهد الإمام سفيان الثوري قد افتتح في مدينة إدلب لتدريس المواد الشرعية وتخريج طلبة علم يعملون على سد الثغور العلمية من إمامة وخطابة ودروس مسجدية وكلمات تحريضية على الجبهات وفي المقرات والثكنات، وأعمار الطلاب تتراوح ما بين الخامسة عشرة إلى الثلاثين.

مضت بضع دقائق قبل أن يدخل المعلم إلى القاعة ويبدأ بمقدمة تعريفية عن المعهد، ثم يتكلم قليلا عن طلب العلم وفضله ووجوب نشره وأهمية الجهاد باللسان ودفع شبه الباطل وكشف أكاذيب الأفاكين وأهل الضلال الذين لا يكفون عن السعي لتشويه صورة الإسلام وإلصاق التهم الباطلة فيه، ثم أخذ يحضهم على الجد والاجتهاد في تحصيل العلم والصبر على شدائده.

ثم تنهد بحزن وقال: اعلموا يا أبنائي أن الباطل يسعى لغرز مخالبه في عقائد المسلمين ويحرص على تقطيع أوصال أخلاقهم بأنيابه، ولا شيء يخيفه أكثر من العلماء الربانيين الذين لا تنطلي عليهم خدعه، ولا يغترون بمسعول كلامه، ولا تروج عليهم أكاذيبه؛ ولذلك فإن من أهدافه العظمى أن يبقى الناس غارقين في مستنقع الجهل يتخبطون حيارى في ظلمات الضلال.

إن الباطل يغدق أموالا عظيمة ليمنع نور العلم من التسلل إلى قلوب الناس وعقولهم؛ لأن وصول النور يعني تمزيق الظلام وهلاك الباطل.

وأنتم يا أبنائي في خير عظيم؛ فقد يسر الله لكم من يدرسكم العلم وأنتم آمنون مطمئنون لا تخافون وشاية مخبر أو تجسس عميل لأفرع الأمن، ودعوني أسرد عليكم قصتي في طلب العلم فإن في ذلك ما يحفز هممكم ويستثير عزائمكم إن شاء الله.

لقد نشأت في أسرة متدينة تحب الله ورسوله وتحرص على الالتزام بشعائر الإسلام وحضور مجالس الوعظ التي تعقد في المساجد، ولكن الخطير في الأمر أن هذه المجالس كان يتصدرها المشايخ المتصوفة الذين يجري الغلو في الصالحين في عروقهم، فكانوا يقصون علينا من القصص ما لا يقبله دين ولا يدخل في عقل، ومع ذلك تتأثر الناس بذلك ويسرون به، والحق أني كنت واحدا من الناس أتصرف مثلهم تماما.

ومضى على ذلك وقت ليس باليسير ثم انتشرت القنوات الفضائية الدينية، ونفع الله بها كثيرا من الناس، وأنا واحد منهم، فكنت أستمع إلى العلماء وهم يفسرون كلام الله ويشرحون سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ويقررون التوحيد بيسر وسلاسة لا تصطدم مع فطرة ولا يرفضها عقل، فأحببت العلم وأقبلت بشغف على متابعة برامج المشايخ والاستفادة منها وتدوين فوائدها في دفتر أعددته لذلك.

وازداد حبي للعلم وأردت أن أجد شيخا أجلس بين يديه وأتلقى منه، وكان هذا في غاية الصعوبة؛ لأن السجن سيفتح ذراعيه لاحتضان من يفعل ذلك.

ثم يسر الله لي أحد طلبة العلم فدلني على مجلس علم يعقده أحد المشايخ في بيوت تلاميذه خوفا من أعين الرقباء، فالتزمت في تلك الحلقة، وكان الشيخ يشرح لنا من تفسير ابن كثير وفقه السنة وكتاب التوحيد، وشعرت بالفرح يغمر قلبي ويملأ جوانحي، غير أن ذلك لم يدم طويلا، فقد تمكن أحد مخبري النظام من رصد أوقات تجمعنا فوشى بنا إلى الأمن العسكري فداهمنا المجرمون وألقوا القبض علينا جميعا وبالجرم المشهود كما قالوا، ثم ساقونا مقيدين معصوبي الأعين إلى ما يسمى بفرع فلسطين.

ولن أكلمكم عن حفل التعذيب الذي استقبلنا به هناك ولا عن المعاملة التي يبكي من هولها الحجر ولا عن الكفر الذي لو سمعه أبو جهل لخر ساجدا يقول: ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. إنما حديثي عن طلب العلم هناك.

لما دخلت الفرع كنت أحفظ سبعة أجزاء من القرآن ووجدت السجن فرصة لأتابع حفظي هناك، فما إن استقر بي المقام في المهجع بعد نقلي إليه من المنفردة، حتى سألت السجناء ومعظمهم معتقلون لقضايا إسلامية ما بين جهاديين وحركيين وعلميين: هل عندكم مصحف هنا؟ فقالوا: نعم، ففرحت، وقلت: أين هو؟ فقالوا: أي

جـزء تريـد؟ فتعجبـت وقلـت: أريـده كامـلا، فقالـوا: للأسـف يوجـد عندنـا اثنـان وعشـرن جـزءا فقـط، فقلـت: ولمـاذا؟ هـل اقتطـع أحـد مـن النسـخة ثمانيـة أجـزاء، فضحـك محدثي وقـال: يـا هـذا، أتظـن نفسـك في دولـة تعتـرف بحقوقـك، ابتسـم يـا أخـي فأنـت في سـوريا، ألا تعلـم أن المصحـف ممنـوع هاهنـا، ثـم أخـذ بيـدي وأخذنـي إلـى الجـدار الأول، وأشـار بيـده إليـه، وقـال: هاهنـا الأجـزاء الثلاثـة الأول مـن القـرآن، ثـم انتقـل إلـى جـدار مجـاور إليـه، وقـال: وهنـا الأنفـال والتوبـة ومحمـد، وسـار شـيئا قليـلا حتـى وصـل إلـى الجـدار الثالـث، وقـال: وهاهنـا الإسـراء والكهـف ومريـم وطـه والأنبيـاء والحـج، ثـم عـاد بي إلـى حيـث كان يجلـس وأخـرج أوراقـا كانـوا يجمعونهـا مـن علـب التبـغ، وقـال: وهـذا باقي المصحـف، سـوى الأجـزاء الثمانيـة وهـي مـن الواحـد والعشـرين إلـى التاسـع والعشـرين، ثـم قـال لي: كـم تحفـظ مـن كتـاب الله، فقلـت: الأجـزاء الخمسـة الأول، والجزأيـن الأخيرين، فقـال: حسـبي الله ونعـم الوكيـل، إذن لـن تفيدنـا في إكمـال كتابـة المصحـف.

فأقبلـت بجـد على حفـظ كتـاب الله، حتـى أنـي كنـت أحفـظ بإتقـان شـديد جـزءا كل أسـبوع وأنـا مشـفق مـن عـدم وجـود باقـي المصحـف، والمهجـع كأنـه خليـة نحـل في تـدارس القـرآن، فالجميـع إمـا معلـم أو متعلـم، سـوى ثلاثـة أشـخاص لـم نعـرف كنـه تهمهـم على الحقيقـة، ولكـن مـن الواضـح أن النظـام وضعهـم بيننـا ليكونـوا عينـا لـه علينـا، والحـق أنـا مـا كنـا نعبـأ بذلـك كثيـرا؛ لأننـا كنـا نحتـرس منهـم أشـد الاحتـراس، فـلا نتكلـم شـيئا أمامهـم.

مضـت عـدة أسـابيع قبـل أن يتـم نقـل معاويـة مـن المنفـردة إلـى المهجـع الـذي أنـا فيـه، ومـا إن اسـتقر بـه المقـام حتـى هرعـت إليـه ولـم أسـأله عـن تهمتـه، فقـد بـدا واضحـا على وجهـه أنـه قـد اعتقـل منـذ فتـرة طويلـة لتهمـة إسـلامية، فبشـرته بيضـاء لبعـد عهـده بالشـمس، والنـور يتـلألأ في وجهـه، إضافـة إلـى علامـات التعذيـب الوحشـية، وهـذه الطريقـة في التعذيـب تـكاد تكـون حكـرا على أصحـاب التهـم الإسـلامية.

دنـوت منـه وسـألته: كـم تحفـظ مـن كتـاب الله؟ فقـال: بحمـد الله، قـد انتهيـت مـن حفظـه مـن ثلاثـة أشـهر، ففرحـت فرحـا شـديدا، ثـم انتبهـت لنفسـي، هـل هـذا الرجـل يعـرف مـا يقـول، أم أن مـا عانـاه مـن التعذيـب جعلـه مهلوسـا، فتشـجعت وسـألته كيـف حفظتـه ولا مصحـف لديـك، وأنـت في منفـردة، فضحـك ولاحـظ مـا اعترانـي مـن دهشـة، فأحـب أن يزيـد ذلـك، فقـال: عـن طريـق صنبـور الميـاه! فأيقنـت أن الرجـل فاقـد لعقلـه؛ إذ كيـف يحفـظ الإنسـان القـرآن عـن طريـق صنبـور الميـاه، ولدهـاء الرجـل وذكائـه، قـال

لـي: امتحنـي، فأعجبتنـي الفكـرة، فسـألته عـدة أسـئلة في كتـاب الله، فـإذا بـه يجـري في القـراءة كالسـهم لـم يخطـئ خطـأ واحـدا، فـزادت حيرتـي، وقلـت لـه: سـألتك بـالله، وضـح لـي كيـف حفظـت القـرآن؟ فقـال: كنـا في سلسـلة المنفـردات نعـرف بعضنـا، ومعنا شـاب يحفـظ القـرآن بالقـراءات السـبع، فكانـت الميـاه إذا انقطعـت طرقنـا على بعضنـا طرقـات معينـة ففتحنـا صنابيـر الميـاه، وبـدأ الأخ الحافـظ يقـرأ ونحـن نسـتمع، ولا يـزال يعيـد الصفحـة مـرات كثيـرة حتـى نحفظهـا ثـم نقرأهـا عليـه، وكنـت لمـا دخلـت المنفـردة أحفـظ عشـرة أجـزاء ثـم حفظـت بهـذه الطريقـة عشـرين جـزءا.

فسـررت بذلـك، وأقبـل الكتَّـاب في المهجـع عليـه بعـد أن علمـوا أنـه قـد أتـم حفـظ القـرآن فأخرجـوا أقـلام القصديـر، طبعـا هـي ليسـت أقلامـا ولكـن غطـاء علـب اللبـن المجفـف تُلـف حتـى تصيـر كهيئـة الأقـلام، ثـم تبـل بالمـاء ويكتـب بهـا على الجـدران، فيكـون خطهـا كقلـم الرصـاص.

وبـدأ الكتبـة يكتبـون على الجـدران وهـو يملـي عليهـم، حتـى كتبـوا الأجـزاء الثمانيـة في أسـبوعين، وبذلـك صـار عندنـا نسـخة كاملـة مـن القـرآن، واحتفـل المهجـع بذلـك احتفـالا عظيمـا، وامتـلأ قلبـي فرحـا وسـرورا، والحـق أنـي كنـت أتمنـى ألا يطلـق سـراحي إلا بعـد أن أتـم حفـظ القـرآن، وقـد حقـق الله لـي ذلـك، ففـي اليـوم الـذي أنهيـت فيـه حفـظ القـرآن بعـد الفجـر أطلـق سـراحي بعـد العصـر ولله الحمـد.

ثـم أقبـل على طـلاب المعهـد وقـال: فأنتـم تـرون كيـف يسـر الله لكـم تحصيـل العلـم ووفقكـم لتلقـي العلـم بيسـر وسـهولة، فاحرصـوا على الجـد والاجتهـاد فأنتـم في نعمـة عظيمـة.

انتهت.

ضرب متة

الزمان والمكان: خان شيخون 2012.

أمضى عثمان نوبته من الثانية عشرة إلى الثانية ظهرا على سطح المقر يراقب بمنظاره حاجز النظام على طرف القرية من الجهة الشمالية، كان يتأمل بدقة وجوه الأشخاص الذين يستوقفهم الحاجز ويقوم بتفتيش سياراتهم أو يقوم بالتحدث معهم، فهو يخشى أن يكون بعضهم عملاء وجواسيس للنظام ينقلون إليه أخبار المجاهدين أو يعطونه إحداثيات مقراتهم ليقوم بقصفها.

وقبيل انتهاء نوبته كان عثمان قد بدأ يشعر بالتعب الشديد؛ فهو صائم ونوبته على سطح سقفه السماء وقد كوته الشمس بسياطها اللاهبة.

وفجأة شاهد عثمان الحاجز وهو يوقف سيارة نوع سوزكي ويخاطب سائقها ويأخذ منه هويته ويأمره بالعودة إلى القرية، واستدار السائق بسيارته وانطلق نحو القرية.
استراب عثمان بشأن هذا السائق، ونادى إخوانه على الحاجز، وطلب منهم إيقاف السيارة، ثم سلَّم النوبة لمن بعده وركب دراجته النارية وانطلق نحو الحاجز حيث كان سائق السوزكي قد وصل بسيارته.

توجه عثمان نحوه وسأله عما جرى بينه وبين الحاجز، شعر الرجل بالخوف وأخبره أن الحاجز أخذ هويته وطلب منه أن يرجع إلى القرية ويحضر له علبة متة ونصف كيلو سكر، ثم أخذ الرجل يقسم الأيمان المغلظة أنه صادق فيما ذكر وأنه ليس جاسوسا ولا عميلا للنظام.

كان عثمان يستمع للرجل وهو يفكر كيف يمكن أن يستغل هذا الموقف ليعاقب الحاجز النصيري، ولم يكن يشك أن الرجل صادق في كلامه، ولكنه قال له: سوف تذهب معنا إلى المقر لنطرح عليك بعض الأسئلة ثم نتركك وشأنك.

أضاءت فكرة في رأس عثمان وبدأ على الفور بتنفيذها، قام واشترى مادة اللانيت وهي سم لا طعم له ولا لون ولا رائحة، ثم عاد وطلب من بعض المجاهدين أن يشتري علبة متة ونصف كيلو سكر، ففعل المجاهد وأحضر المتة والسكر، ومازح عثمان قائلا: بدك تسقي الجيش متة على حسابك؟

فقال له عثمان: ستكون متة تضحك أرامل الشهداء وتسعد أيتامهم وتملأ قلوب المصابين بالفرح.

لم يفهم المجاهد ماذا أراد عثمان بقوله إلا أنه أعطاه المتة والسكر.
دخل عثمان إحدى الغرف وخلط اللانيت بالسكر والمتة وأعاد إغلاق علبة المتة، ولم يخبر أحدا بما فعل، ثم خرج واتجه إلى الغرفة التي كان ينتظر فيها سائق السوزكي وأعطاه المتة والسكر، قائلا: نأسف على الإزعاج يمكنك الانطلاق الآن.

حاول الرجل أن يعطي عثمان ثمن السكر والمتة إلا أنه رفض، فأخذ الرجل الأشياء وسار بسيارته؛ حيث أعطى الحاجز السكر والمتة وأخذ هويته وأكمل سيره.

وفي المساء وصلت الأخبار أن خمسة من عناصر الحاجز لقوا حتفهم نتيجة التسمم، فيما نقل أربعة آخرون إلى المشفى.

عندها أخبر عثمان أصدقاءه بما جرى قائلا: «كذا فلتكن أضرب المتة».

بين الحب والإيمان

عاد بهاء إلى بيته والفرحة تتراقص على وجهه فقد حصل على مجموع عال في نيله لشهادة البكالوريا، وسيتمكن من دخول فرع الهندسة الكهربائية ويحقق حلمه الذي كان يحلم به منذ كان صغيرا.

ومضت الأيام وصار بهاء طالبا في كلية الهندسة الكهربائية، كان بهاء شابا أسمر طويلا واسع العينين عريض الجبهة، في أنفه دقة شديدة الأناقة، مرهف الإحساس، ولم يكن بهاء ملتزما دينيا فهو نادرا ما يصلي باستثناء صلاة الجمعة، وقد تربى في أسرة يسمونها متحررة يشيع فيها الاختلاط وسماع الأغاني وتدخين السجائر، ومع ذلك فقد كان مهذبا، وقد رباه أبوه التاجر الحلبي الثري على صدق اللهجة، وكان كثيرا ما يقول له: رأس مال التاجر صدقه؛ فإياك والكذب.

كانت كلية الهندسة الكهربائية كسائر الكليات في حلب، تكاد تخلو من مظاهر الأدب والحشمة، ويكثر فيها التبرج، وتعطى المحاضرات فيها في قاعات هي بالمراقص أشبه منها بدور العلم.

تعرف بهاء على عدة أصدقاء كانت من بينهم فتاة تدعى سارة من مدينة صافيتا، وهي من الطائفة النصيرية، ولم يكن بهاء يعرف من هم النصيرية، على أي حال فقد أعجب بالفتاة وشغفته حبا، ولم يكن حال سارة بأحسن منه، ومرت الأيام وازداد تعلق بهاء بسارة، وكان يشعر أن اليوم الذي لا يراها فيه يمر بطيئا كالسلحفاة تحمل على ظهرها جبلا.

ولما دنا وقت تخرجهما من الجامعة فاتح بهاء أمه بموضوع سارة وطلب منها أن تعرض الأمر على أبيه، ولما أخذت الأم تستفسر من ابنها عن تلك الفتاة علمت أنها من الطائفة النصيرية، فقالت له أمه: يا بني، لا أريدك أن تتزوج من هؤلاء القوم فهم ليسوا من أهل ديننا وملتنا.

ذهل بهاء وهو يسمع أمه تقول ذلك، وقال لها: ولكنها فتاة طيبة يا أمي وأنا أحبها.

وأرادت الأم أن تتخلص من شدة الموقف فقالت له: سأعرض الأمر على أبيك ليرى رأيه في ذلك.

كان أبو بهاء تاجرا محنكا ذكيا، ذا مهارة عالية في التجارة، ولا هم له سوى جمع الأموال، ثم إنفاقها ببذخ على أسرته، وعندما عاد في المساء أخبرته بالقصة، وحذرته من مغبة السماح لابنه بالزواج من فتاة نصيرية، ولكن أبا بهاء وجد أمامه كنزا ثمينا، وفرصة لا تعوض، فهذه الفتاة قد تفتح له آفاقا لتسهيل عملياته التجارية طالما أنها من الطائفة التي تحكم البلد وتتحكم فيه، فقال لزوجته: وما المشكلة أن يتزوج بها بهاء، فقالت: ألم تنتبه إلى ما قلت لك، إنها علوية علوية يا أبا بهاء، يعني كافرة.

فقال لها: اخفضي صوتك حتى لا يسمعك أحد فنصبح في خبر كان، وأتبع قائلا: حتى لو كانت كافرة فإنها ستسلم عندما تأتي وتعيش بيننا.

فقالت: ولكن يا أبا بهاء،
فقاطعها قائلا: دعيني من ولكن، طالما أن الولد قد أحبها واختارها فليكن له ذلك.
ووافقت أم بهاء مكرهة.

وفي الوقت ذاته كانت سارة قد فاتحت والدتها بالموضوع ذاته، وأخبرتها أن صديقها بهاء قد أحبها وينوي خطبتها، وأنه ابن تاجر ثري من حلب، ولم تعارض الأم ذلك، وأبلغت أبا سارة بالأمر، ففرح بذلك، فهو يريد أن تذوب الفوارق بين السنة والنصيرية ويتغلغل النصيرية في المجتمع ليخرجوا من عزلتهم السابقة.

وجرت حفلة الخطوبة وكانت حفلة مليئة بالمنكرات بغياب الشعور الإيماني ورقابة الدين، وتم تحديد العرس بعد التخرج مباشرة، أي بعد ثمانية أشهر من الآن.

وشعر بهاء أن الكون بأسره لم يعد يسعه من الفرحة والسرور، ولم يمض سوى شهران على ذلك حتى بدأت المظاهرات تعم في أرجاء حلب منادية بإسقاط النظام، وقد اتخذ بهاء موقفا حياديا في بداية الأمر، ولكن عندما رأى قطعان الوحوش التي يطلق عليها الشبيحة تقمع الناس بكل وحشية، ورأى عددا من أصدقائه في الجامعة اعتقلوا ثم خرج بعضهم وقد صار جسده مشتملا على ألوان الطيف السبعة «قوس

قـزح» وكانـت قاصمـة الظهـر بالنسـبة لـه عندمـا رأى أحـد أصدقائـه وقـد افترسـت فـؤاده ثـلاث طلقـات خرجـت مـن فوهـة بندقيـة أحـد الشـبيحة.

عندهـا أخـذ بهـاء يشـارك في المظاهـرات، ويهتـف بإسـقاط النظـام، وكانـت خطيبتـه سـارة كثيـرا مـا ترجـوه أن يكـف عـن ذلـك، وتـردد على مسـامعه مـا تسـمعه مـن أهلهـا مـن أن هنـاك مؤامـرة كونيـة على نظـام الممانعـة والمقاومـة، فـكان يسـرد عليهـا مـا رآه بـأم عينيـه مـن مشـاهد الوحشـية والإجـرام التـي يمارسـها نظـام الممانعـة والمقاومـة على الشـعب الأعـزل، وذكـر لهـا كيـف قتـل صديقهمـا قبـل أيـام. ولـم تجـد سـارة أمامهـا إلا الصمـت حـلا.

وفي إحـدى المـرات خـرج بهـاء يهتـف في مظاهـرة عارمـة، فأحاطـت بـه مجموعـة مـن الشـبيحة، وانهالـوا عليـه ضربـا، واقتـادوه إلـى إحـدى سـيارات الشـرطة، ومـن هنـاك نقـل إلـى أحـد الأفـرع الأمنيـة، ومـا إن وطئـت قدمـاه ذلـك الفـرع حتـى اسـتقبله زبانيتـه بمختلـف أنـواع اللكمـات والصفعـات والـركلات واللكـزات واللهـزات، فسـقط أرضـا وهـو يـرى أن هـؤلاء وحوشـا كالبشـر أو بشـرا كالوحـوش أو آلات لا قلـوب لهـا أو أي شـيء، المهـم أنهم بـراء مـن الإنسـانية ولوازمهـا بـراءة الذئـب مـن دم ابـن يعقـوب عليهمـا السـلام.

مكـث بهـاء في السـجن خمسـة عشـر يومـا ذاق خلالهـا صنـوف الألـم وأنـواع التعذيـب، وسـمع مـن الشـتائم البذيئـة مـا لـو جمـع لـكان قـدرا صالحـا ليكـون ذيـلا لمعجـم المناهي اللفظيـة أو شـرحا مطـولا لقـول أهـل العلـم: والكفـر قـد يكـون بالقـول، وأمثلـة غزيـرة لا تحصـى للألفـاظ التـي يقـع بهـا القـذف ممـا يذكـر عـادة في كتـاب الحـدود.

وحـدث أمـر مهـم في السـجن كان سـببا في تغيـر مجـرى حيـاة بهـاء، وذلـك أنـه التقـى برجـل في السـجن يشـع النـور مـن وجهـه ويغمـر الإيمـان قلبـه، ولا يعـرف القنـوط طريقـا إلـى نفسـه، وبعـد أن تعـرف كل واحـد منهمـا على الآخـر أقبـل الرجـل على بهـاء فقـال لـه: صراعنـا مـع هـؤلاء النصيريـة يـا بهـاء أعمـق مـن أن يكـون مـن أجـل إسـقاط هـذا النظـام فقـط، أو نيـل بعـض الحريـات، أو إلغـاء قانـون الطـوارئ، أو مـا شـابه ذلـك. إنهـا معركـة إيمـان وكفـر.

دهش بهاء وهو يسمع ذلك، وقال للرجل: من هم هؤلاء النصيرية؟
فأجـاب: هـم مـن يسـميهم النـاس خطـأ العلويـة، وهـذا اسـم أطلقـه الفرنسـيون عليهـم

بقصد خداع أهل السنة في سوريا.

ثم تابع قائلا: «هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية أكفر من اليهود والنصارى، بل أكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين، ومن أعظم مصائبهم انتصار المسلمين، ومن أعظم أعيادهم قتل المسلمين والاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم» [اقتباس من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بتصرف يسير واختصار]، ولا يمكن أن يصمد بوجههم إلا من عمر قلبه بالإيمان وباع نفسه لله، فكن من هذا الصنف أو لا تتعب نفسك فالطريق طويل وشاق ولا زلنا في بدايته.

وختم حديثه بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا).
لامست كلمات هذا الرجل شغاف قلب بهاء وأحس أن مطرا غزيرا قد سقى قلبه القاحل فنبتت فيه المعاني الإيمانية، فعاهد ربه على التوبة وسلوك هذا الطريق الشاق الطويل.

وخرج بهاء من السجن بعد أن دفع أبوه التاجر ثلاثة ملايين ليرة رشوة لإطلاق سراح ابنه.

بدأ تغير بهاء واضحا على أسرته، فهو يحافظ على صلاته في المسجد، ويجتنب السهرات الأسرية المختلطة، وعزف عن سماع الأغاني.

ثم التقى بخطيبته سارة التي قدمت لتهنئه بالخروج بالسلامة. وقبل أن تخيره بينها وبين الكف عن الخروج بالمظاهرات صارحها بأنه لا يمكن أن يتزوج بها ما لم تسلم، وصعقت سارة، وهي تسمع ذلك، ولكنها ظلت صامتة فيما تابع بهاء حديثه عن عزمه على سلوك طريق الثورة ومناهضة هؤلاء الظلمة المجرمين، ثم ذكر لها شيئا مما لقي من العذاب في سجنه، ولم ينس أن يخبرها بوجوب ارتداء الحجاب الشرعي، ثم ختم حديثه قائلا: ما رأيك؟

إلا أن سارة لم تنبس ببنت شفة، بل نزعت خاتم الخطوبة من يدها ثم رمته في وجهه وغادرت المكان دون حتى كلمة الوداع.

شعر بهاء أن قلبه قد انصدع فقد كان مفعما بحب سارة، ولكنه كان قد تعلم أن هذا الطريق يستدعي التضحية بأعظم المحبوبات واللذائذ، ومما أعانه على ذلك مطالعته لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

حاولت أسرة بهاء ثنيه عن الطريق الذي بدأ بسلوكه، وكثيرا ما جلس أبوه أمامه يقول له: يا بني، لا نريد مشاكل، نحن نعيش بأمان ورغد من العيش، وهؤلاء المتظاهرون يريدون تخريب البلد، فكف عما أنت فيه ولا تحملني ما لا طاقة لي به. أخبرني ماذا ينقصك؟ أنت تعيش في أهنأ عيشة، تأكل وتشرب ما تحب، وتسكن في أرقى المناطق، وتلبس أجمل الثياب، ماذا تريد غير ذلك؟
وهذه الفتاة التي أحببتها قد تركتك، فراجع نفسك قبل فوات الأوان.

فقال بهاء: هل هذا ما نحيا لأجله يا أبتاه؟ أما ترى الظلم الجاثم على صدورنا؟ ألم أحك لك عما لقيته ويلقاه السجناء من العذاب والإهانة والقتل في الأفرع الأمنية؟
ثم من هم الذين يريدون تخريب البلد من المتظاهرين، كلهم أبناء أسر معروفة وهم شباب في عمر الورد، وكثير منهم من طلبة الجامعة بمختلف أفرعها.
فغضب أبوه لدى سماعه هذا الكلام وقطع عنه المصروف وطرده من المنزل محاولا بذلك ثنيه عن طريقه، ولكن بهاء لم يعبأ بذلك، واتخذ من مصعب بن عمير أسوة له .

وبعد أن تحولت المظاهرات إلى ثورة مسلحة انضم إليها بهاء، ولكنه لم ينس حبه لسارة، وقد اقتنى كتاب السحاب الأحمر وحديث القمر للرافعي، وكان يقرأ فيهما كل ليلة والدموع تنهمر من عينيه.

وفي أحد الأيام طلب أمير الفصيل من المجاهدين الاستعداد لمعركة ضخمة من أجل تحرير بعض المناطق من قبضة النظام النصيري، فتأهب المجاهدون لذلك واستعد بهاء الاستعداد الكامل، وشعر أنه سيلقى ربه في تلك المعركة، فكتب رسالة بخط يده ودفعها إلى أحد أصدقائه الثقات وأمره ألا يفتحها إلا إذا استشهد، فعندئذ يقوم بتصويرها بجواله ثم إرسالها إلى رقم أعطاه إياه.

لم تكن سارة قد نسيت حب بهاء بل كان طيفه يزورها كل ليلة، وكانت لا تنام حتى تبل وسادتها بدموعه، ولكن كبرياءها منعها من إعادة الاتصال ببهاء.

وأخذت تتابع الإعلام بشدة لعلها تظفر بخبر عنه، وقد أورثها ذلك يقينا بكذب النظام وبطلان دعاويه ووهاء أكاذيبه، ورأت بعينها قصفه بأنواع الصواريخ والقنابل والبراميل للآمنين والأبرياء، ورأت أشلاء الأطفال المتناثرة وأجسادهم الغضة الطرية وقد اختنقت بعد أن قصفت بالكلور والسارين، فأحست ببغض شديد لهذا النظام، وودت لو أن نارا من السماء نزلت عليه فأحرقته أو لو أن الأرض انشقت فابتلعته وخلصت الناس من جرائمه وشروره.

وفي إحدى الليالي المقمرة وبينما سارة تتجول في حديقة منزلها متذكرة الأيام الماضية مع بهاء إذ سمعت صوت تنبيه من جوالها ينبؤها أن رسالة قد وصلت إليها، أمسكت الجوال فرأت رقما غريبا، أرسل إليها: السلام عليكم، الآنسة سارة؟ هذه رسالة كتبها بهاء، وقد طلب مني أن أرسلها لك وقد استشهد البارحة بطلقة قناص أصابت قلبه.

ثم رأت صورة ورقة مكتوب فيها: سارة، أعلم أن هذه الرسالة لن تصل إليك إلا بعد أن تكون روحي قد زفت إلى السماء، ولذلك لن أكثر عليك الكلام حتى لا أنكأ فيك جروحا قد التأمت أو شارفت على الالتئام ولن أذكرك بالأيام السالفة، إنما أريد أن أقول لك شيئا واحدا فحسب: قد فاتنا اللقاء والوصال في الدنيا، فاحرصي على أن تجمعنا الجنة في الآخرة، فإني هناك. «بهاء».

أنهت سارة الرسالة ودموع غزار تنهار من عينيها كأنها المطر في كانون الثاني، ثم أرسلت إلى ذات الرقم تطلب منه عنوانهم في حلب، وقبيل شروق الشمس كانت سارة قد حزمت أمرها وأتمت استعدادها ويممت وجهها شطر حلب، معلنة إسلامها ساعية لتحقيق وصية بهاء في اللقاء بالآخرة بعد أن فات اللقاء في الدنيا.

انتهت.

يلعن روحك يا حافظ

كنت لا أزال في المكتب الدعوي في حي السكري مقابل مدرسة الثورة مقر حركة أحرار الشام الإسلامية حين سمعت صوت المؤذن ينادي لصلاة الظهر، توضأت ثم نزلت متجها إلى مسجد فاطمة عقيل والذي لا يبعد عن المكتب سوى 100 متر، ولهذا المسجد مكانة عظيمة في قلبي لا يمكن أن يمحوها تعاقب الأزمان مهما طالت، فقد كان الأم الحنون الذي احتضن المجاهدين بعد تحريرهم لحي السكري، وكان مركز نشاطهم، بل قد مر شهران ولا مكان للمجاهدين ينامون فيه سوى هذا المسجد، ولا مطعم يأكلون فيه سوى سُدَّته.

وصلت المسجد فدخلته ووجدت متسعا في الصف الأول فوقفت وصليت السنة، ثم انتظرت حتى أقيمت الصلاة وتقدم إمام المسجد وهو شاب كنى نفسه بأبي مسلم وأصله من عندان، فصلى بنا الظهر.

وبعد قضاء الصلاة جلست أقرأ الأذكار، وشممت رائحة غريبة منكرة؛ وإذ برجل سمين جدا يظهر بشكل واضح أن في عقله شيئا يقترب مني ويجلس بجانبي، ثم يشرع بسؤالي عن معنى الإسراف؟

فقلت له: الإسراف مجاوزة الحد في الإنفاق في المباح، ومن الإسراف أن تشتري كل ما تشتهي.

فقال: وما التبذير؟

فقلت: أن ننفق مالا في غير ما أحله الله، وقد قال تعالى في شأن الإسراف (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وقال في شأن التبذير: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ).

فقال: لقد شققت علي بقولك: إن من الإسراف شراء كل ما اشتهيت.

فقلت: هذا كلام العلماء وأنا مجرد ناقل، ورجوت أن ينصرف الرجل فقد آذتني رائحته جدا، إلا أنه أقبل يتبع السؤال بالسؤال، حتى ظننت أن الرجل يريد أن يختبرني، وكان نموذج المختبرين في تلك المدة قد كثر جدا خاصة بعد ظهور الخوارج ونشرهم لبدعهم وكثرة خوضهم في لحوم العلماء وطلبة العلم في الباطل.

فقلت له: أتريد أن تمتحنني بأسئلتك هذه؟
فارتسمت على وجهه علامات الحزن والأسف، وقال: «sory»، فتعجبت من رجل يظهر عليه اختلال العقل ثم يذكر كلمة باللغة الإنجليزية، إلا أن عجبي زاد جدا وبلغ منتهاه عندما قال لي بعد قليل أثناء حديثه: إن نسبة أي عدد إلى «Infinity» يساوي صفر، ثم قال: إنفينيتي تعني اللانهاية، وذكر بعض المصطلحات الأخرى إلا أني لم أحفظها لضعفي في اللغة الإنجليزية.

وبدا واضحا أن هذا الرجل على درجة عالية من الثقافة، وأن حادثا ما قد صيره إلى تلك الحال، وأردت أن أسأله عن قصته إلا أني تهيبت من ذلك وخشيت أن أجرحه، فهذا الرجل ذو إحساس مرهف جدا، وندمت على قسوتي عليه في الكلام قبل قليل.
وتابع الرجل حديثه فقال: أنا دكتور، وكنت أدرِّس في جامعة حلب مادة العقل الجمعي للبورصة.

وهنا غلب فضولي الحياء فسألته: ما الذي صيَّرك إلى ما أرى؟
فتنهد الرجل بعمق، ثم قال: إنها قصة طويلة.
فقلت: وأنا ملقي السمع لتقصها علي.

فقال: كنت أدرس في جامعة حلب، ومع بداية الثورة بدا واضحا أني مؤيد لتلك المظاهرات السلمية التي كانت تطالب بالكرامة والحرية، فقام جواسيس النظام لا كثرهم الله بكتابة تقرير فيّ.

ولم تمض إلا أيام حتى استدعاني عميد الكلية في نفر من الدكاترة، وبعد مقدمة مقيتة عن الوطن وقائد الوطن وتضحياته والمقاومة والممانعة والمؤامرة الكونية التي تتعرض لها البلاد طلب منا التوقيع على بيان دعم للنظام وشتم للمتظاهرين ورميهم بأشنع التهم من الارتزاق والعمالة والإرهاب وتدمير البلد وما إلى ذلك، فرفض بعض الدكاترة التوقيع على ذلك.

فقال: أمامكم خياران؛ إما أن توقعوا على هذا البيان، وإما أن توقعوا على طلب استقالتكم.

فقلت: وإذا رفضت التوقيع على أي منهما؟

فقال: إذا عليك أن تراجع الأمن السياسي فلديهم ما يقولونه لك.

وبما أني لا أبيع مبادئي، ولست مستعدا للتنازل عنها، وفي الوقت ذاته لا أرغب برؤية وجوه الوحوش البشرية في الأمن السياسي فقد رضيت أن أوقع على طلب استقالتي وخسرت بذلك وظيفتي التي أنفقت قرابة عشرين عاما من عمري لأحصل عليها، ومع ذلك لم ألق لذلك بالا فأنا على علم أن الرزق بيد الله وسيأتي إليّ رغما عن النظام، ويكفيني أني انتصرت في هذه المعركة، انتصرت كرامتي على الأنانية والمادية.

وعلى أي حال فقد كنت ميسور الحال، وكان لدي ولد كفلقة القمر أسميته خالد وهو أحب إلي من بصري، وكنت أرسله ليتعلم القرآن في مسجد قريب من بيتي فكان يبهرني بذكائه وسرعة حفظه وجودة فهمه وصفاء ذهنه، ولأحثه على المتابعة والمثابرة والجد فقد أفرغت له غرفة في الدار ودعوت أطفال عمارتنا ليدرسهم، وأسميت تلك الغرفة: مكتب خالد.

ثم دخل المجاهدون مدينة حلب، وحررت المنطقة التي أسكن فيها، وكانت سعادة غامرة أن ينكسر قيد الذل والاستعباد، ولكن سعادة الناس لم تكتمل؛ إذ بدأ النظام بقصف المناطق المحررة بعشرات قذائف المدفعية والهاون يوميا، وفي ذات يوم نرسل خالد ليشتري لنا شيئا من البقالة، وما إن مضى قليلا حتى سمعت صوت قذيفة هاون تنفجر وتحدث دويا عظيما، فقمت مسرعا فزعا فقد خشيت أن يكون خالد قد أصيب بمكروه.

نزلت إلى الشارع أعدو كالمجنون، ولكني لم أر خالدا، بل رأيت أشلاء ممزقة كانت خالدا قبل قليل، ولست أقدر أن أصف لك ما حل بي ساعتها، إنه ابني حبيبي ثمرة فؤادي فلذة كبدي نور عيوني، لقد رحل!

أغمي علي ونقلت إلى المشفى، ولم يحتمل عقلي هول الصدمة فصرت أرى خالدا في كل مكان، أدخل غرفته فأراه، أصعد على درج العمارة فأراه، صرت أذهب إلى السوق لأشتري له الألعاب وأعود إلى البيت لأقدمها لخالد، أشتري له الحلويات والملابس.

ثم إني هممت بالانتحار مرارا، ولم يكن انتحارا على الحقيقة، إنما كان خالد يتراءى

لـي وأنـا في الأماكـن العاليـة وهـو في الأسـفل، فأنظـر إليـه فأجـده يقـول لـي: تعـال يـا أبـي، اقفـز إلـي هيـا، أنـا أحبـك وفي شـوق إليـك. فأهـم بذلـك ثـم أنتبـه إلـى نفسـي فأقـول لـه: يـا خالـد أأأأخشـى أن يدخلنـي الله إلـى النـار، علـي أن أصبـر حتـى نلتقـي في الجنـة.

اغرورقت عيناي بالدموع؛ فقد صدعت قصة الرجل قلبي.

نظـر إلـي الرجـل، وربـت على كتفـي، وقـال: ولا زلـت إلـى اليـوم أتلقـى العـلاج، وهـذا السـمن بسـبب تناولـي بعـض الحبـوب التـي تـؤدي إلـى ذلـك، فهـذه قصتـي وهـذا مـا أوصلنـي إلـى حالتـي هـذه، وإن أحببـت أن تسـأل عنـي فأنـا الدكتـور عمـر المـدرس في جامعـة حلـب.

ثـم نهـض الرجـل وتركنـي أمسـح دموعـي وأكفكفهـا، ثـم قمـت بعـده لأخـرج من المسـجد وأنـا أفكـر في هـذا النظـام المجـرم الـذي دمـر البـلاد والعبـاد ماديـا ومعنويـا؛ فبلـد عامـرة بالخيـرات والعلمـاء والمفكريـن يلقـى علماؤهـا في القبـور أو السـجون أو يطـردون مـن وظائفهـم ويتعرضـون لأنـواع الضغـوط حتـى يفقـدوا عقولهـم، وأمثلهـم حـالا مـن يفـر إلـى بلـد آخـر لينجـو بنفسـه مـن جحيـم النظـام.

وهنـا وجدتنـي لا إراديـا أقـول وقـد خرجـت مـن المسـجد واتجهـت إلـى المكتـب: «يلعـن روحـك يـا حافـظ على هالجحـش الخلفتـه».

انتهت.

ليلة رباط في تل صيبين

كانت ليلة رباط لم يمر مثلها عليَّ في حياتي؛ فقد عانيت فيها أهوالا وفظائع، ومرت عليَّ ساعات رعب كادت أن تقطع نياط قلبي.

ولعلك تظن أن ما عانيته كان من قصف للعدو، أو محاولات تسلل، أو رصدا من قبل قناصته بمناظيرهم الليلية، أو تمكنه من معرفة إحداثية نقطتنا ثم إرسال طائراته لتلقي بحممها علينا.

لا، كل ذلك لم يكن ولا بعضه كان، بل الأمر مختلف عن ذلك تماما، ودعني أخبرك بالقصة من بدايتها.
أُعلمت في صباح يوم الأحد أن نوبة مجموعتنا في الرباط غدا، وهذا ليس بجديد عليَّ، إنما الجديد أن نوبتنا ستكون هذه المرة في قرية صغيرة تدعى «تل صيبين» وتقع قرب مدينة حريتان شمال حلب، ولم نكن رابطنا قبل في هذه القرية ولا رأيناها.

وفي صباح الاثنين كانت مجموعتنا بأكملها في المقر وقد لبس أفرادها الجعب والسلاح، وهم ينتظرون سيارة التبديل لنقلهم إلى النقطة وإعادة المجموعة المرابطة هناك إلى المقر.

كان ذلك في كانون الأول، والبرد شديد جدا، وأضرع السماء لا تتوقف عن الدر على الأرض التي كانت عطشى ولكنها الآن مترعة بالماء التي اختلطت بترابها فأحالتها أوحالا، وهذا ما فسر لنا لاحقا لماذا أعطونا في المقر أحذية طويلة الساقين (جزمة).
مضت لحظات ونحن نتجاذب أطراف الحديث، ثم سمعنا صوت سيارة التبديل وهي سيارة نوع بيكاب يتسع صدرها لاثنين سوى السائق، أما باقي المجموعة فتركب في الصندوق المكشوف الخلفي مع بعض المستلزمات من الأطعمة وقِرب الماء وبعض الذخائر.

كان في مجموعتنا شاب مصري وهو طالب علم يدعى أحمد ويكنى أبا محمد، وهو سبب مصيبتي طبعا، فطلبت منه أن يجلس في المقعد جانب السائق وجلست قربه، وجلس باقي الشباب في الخلف.

انطلقت بنا السيارة تقطع المسافات بسرعة كبيرة، مما أدى إلى أن تنال الإخوة في الخلف صفعات متتالية على وجوههم بأكف الريح الزمهريرية.

وبعد مضي ساعة ونصف تقريبا كانت السيارة تدخل إحدى الحوانيت التي تستعل مرآبا للسيارات في القرية، والقرية على خط التماس مع العدو، ولذلك فليس فيها سوى المرابطين.

وكان علينا السير على أقدامنا قرابة سبعمائة متر لنصل إلى المكان الذي يرتاح فيه المرابطون وينامون، فالطريق إلى هناك لا يمكن أن تمر فيه سيارة؛ لأنه مرصود بالصواريخ الحرارية التي ستحيل أي سيارة تمر إلى كتلة من الحديد المذاب، ولذلك تم رفع سواتر تحمي المشاة أثناء سيرهم إلى النقطة.

وخلال مسيري آلمني ما رأيت من بيوت مهدمة بقصف النظام، وأخرى مهجورة خاوية على عروشها تصفر فيها الرياح، فكم تعب أصحاب هذه البيوت وشقوا حتى بنوها أو اشتروها، ثم هم يضطرون لهجرها والفرار منها لأجل أحمق متشبث بالسلطة شعار شبيحته «الأسد أو نحرق البلد» أحرقه الله وإياهم في الدنيا والآخرة. وصلنا بعد قرابة عشر دقائق من السير إلى خندق عمقه يزيد على متر وعشرين سم وقد رفع على جانبه الأيمن ساتر ترابي لاتقاء رصاص القناص، نزلنا إلى الخندق فغاصت أقدامنا في الوحل إلى أنصاف الساقين، وكانت معاناة شديدة وأنت تنتزع قدمك في كل خطوة تخطوها وكأنها كرة شوك منغمسة في الصوف.

وبعد مائتي متر تقريبا وصلنا إلى المكان الذي ينام فيه المرابطون، وكانت أمامنا عقبة كؤودا وهي نزع «الجزمات» من أقدامنا؛ لأنها كالمعتاد من النوع الرديء جدا إضافة إلى كونها ضيقة، وبعد محاولات عديدة لنزعها باءت جميعا بالإخفاق اقترح المصري أن ينزع كل واحد منا جزمة أخيه، فكان المرابط يجلس ويأتي آخر ويقبض على الجزمة بكلتا يديه ثم يجذبها بكل ما آتاه الله من قوة، فإما أن تخرج وإما أن يحاول مرارا حتى ينجح في ذلك أخيرا، والمصيبة أن هذا ما سنعاني منه بعد تبديل كل نوبة على «الطلاقيات».

بعد انتهائنا من مصيبة خلع الجزمات قمنا بترتيب المكان ووضع المستلزمات التي أحضرناها في أماكنها، وتحديد أين سينام كل واحد منا، ثم ترتيب جدول للنوبات

على الطلاقيات، وكان على المرابط أن يقف ساعتين على الطلاقية ثم يرتاح ستا في الجُبِّ، أقصد المكان الذي وضعنا فيه أغراضنا فهو لم يكن في الحقيقة سوى جب لجمع الماء في عهد سابق، وبين الجب والطلاقيات خمسمائة متر تقطعها جميعا في خندق محفور حتى تصل إلى الطلاقية وهي تقع في مقبرة، وبعض القبور قد فتح من جانبيه نتيجة حفر الخندق ولا أدري هل أخرجوا الأموات من القبور عندما حفروا الخندق أم وجدوا الجثث بالية لم يبق منها شيء ظاهر.

ولعلك قد ضقت ذرعا وأنت تنتظر أن أخبرك عن الأهوال التي جرت معي، فاسمح لي أن أخبرك أنه قبل نوبتنا هذه بأسبوعين تقريبا عم الآفاق خبر وفاة شخص مصري يدعى أحمد خالد توفيق، وكتب عنه عدد من الأشخاص كان من بينهم صاحبنا المصري، وكنت أول مرة أسمع باسم هذا الرجل، فسألته عنه حينذاك فأخبرني أنه طبيب وأديب مصري -وليته اكتفى بهذا- وله عدد كبير من روايات الرعب، وقد كان له أثر كبير من خلال رواياته وقصصه على بعض الأجيال قبل انتشار الجوال والإنترنت.. ولا زال يحدثني عنه وعن رواياته حتى حملت من النت إحدى رواياته وقرأتها، وكانت بعنوان: «حسناء المقبرة»، وأظنك قد بدأت بإدراك المصيبة.

نعم هذا ما حدث بالضبط، بعد انتهاء النوبات النهارية جاء دور النوبات الليلية، فخرجت في نوبتي مع أحد الشباب ويدعى أبا بكر، وكانت النوبة من العاشرة إلى الثانية عشرة ليلا.

لما وصلت معه إلى الطلاقيات كانت المقبرة موحشة جدا، وقد نثر الليل ظلامه فلا تبصر شيئا، وإضاءة المصباح فيها خطر عظيم؛ لأن ذلك سيعرضك إلى أن يُكشف مكانك ثم ترجم بقذائف المدفعية والهاون، إلا أنك قد تضطر لإضاءة المصباح لأمر ما، وهنا تضطر أن تدخل أحد القبور المفتوحة، وهناك تضيء المصباح وتصلح ما أردت إصلاحه ثم تخرج.

وقفت مع أبي بكر نتبادل الحديث همسا حتى تمضي الساعات، وقد ذكرتني هذه الأجواء «ببراكسا نجيب»، وإذا سألتني: من هي؟ فسأخبرك أنها هي نفسها حسناء المقبرة، تلك الرواية المشؤومة التي قرأتها بعد أن ورطني في ذلك صاحبنا المصري. وما زلنا ننتقل من حديث إلى حديث حتى حطت الأفكار بأبي بكر في ذكرياته عندما كان عنصرا في جيش النظام قبل أن ينشق عنه في عام 2012 م، وقد ترك

هـذا المزعـج الآخـر كل شـيء وأخـذ يحدثنـي عـن أشـياء غريبـة كانـت تقـع أثناء حراسـتهم الليليـة، كأن تشـتعل نـار بنفسـها ثـم تنطفـئ، وكسـماعهم أصواتـا غريبـة لا يـدرون مصدرهـا، ومـا شـابه ذلـك مـن المصائـب السـوداء الصلعـاء.

ثـم حـدث فجـأة مـا لـم يكـن بالحسـبان ولا خطـر لـي على بـال، فقـد أخبرنـي أبـو بكـر أنه يريـد أن يذهـب إلـى الخـلاء، وهـذا يعنـي أنـي سـأبقى وحيـدا بيـن القبـور، وقـد تظهـر «براكسـا نجيـب» في أي لحظـة -آه مـن ذلـك المصـري هـل يأتـي منـه غيـر المصائـب- لئـن عـدت سـالما مـن هـذه النوبـة لأجازينـه على فعلتـه. وبينمـا أنـا أفكـر في ذلـك، قـال لـي أبـو بكـر: خـذ القبضـة أنـا ذاهـب -والخـلاء يبعـد عنـا مائتـي متـر-.

سـرعان مـا ابتلـع الظـلام أبـا بكـر، وأخـذت أحـدق فـلا أرى أمامـي سـوى شـواهد القبـور القريبـة منـي، وكلمـا هبـت الريـح حركـت الأشـياء المبعثـرة في المقبـرة فأصـدرت أصواتـا غريبـة خيـل إلـيَّ أنهـا مقدمـات لخـروج حسـناء المقبـرة.

حاولـت صـرف ذهنـي عـن تلـك الروايـة المنحوسـة، وأخـذت أفكـر بكتـاب آخـر قرأتـه بعيدا عـن الروايـات، ولكـن للأسـف غابـت عنـي مئـات الكتـب التـي قرأتهـا ووقـف شـامخا في ذهنـي كتـاب «آكام المرجـان في أحـكام الجـان» للشـبلي، فاسـتعذت بـالله مـن شـرهم وقـرأت آيـة الكرسـي والمعوذتيـن، وعـدت أفكـر في آخـر كتـاب قرأتـه قبـل قدومـي إلـى الربـاط، فـكان كتـاب «عجائـب المخلوقـات» للقزوينـي، ومـع أنـه كتـاب كبيـر تصـل عـدد صفحاتـه إلـى خمسـمائة صفحـة وقـد تحـدث فيـه عـن مختلـف المخلوقـات في الكـون مـن الجمـادات والنباتـات والحيوانـات، إلا أن ذلـك تبخـر مـن ذاكرتـي ولـم يبـق فيهـا إلا مـا ذكـره عـن الغـول والسـعلاة والنسـناس المزعـوم والـذي هـو شـق إنسـان وتصطـاده العـرب وتأكلـه، وهـو يتكلـم ويقـول شـعرا، وبمـا أنـه شـق إنسـان فإنـه يقفـز فقـزا على قـدم واحـدة.

فثنيـت عنـان فكـري إلـى آخـر كتـاب حمَّلتـه مـن النـت وقرأتـه على الجـوال، ولكنـه لـم يكـن سـوى كتـاب «الغـول بيـن الحديـث النبـوي والمـوروث الشـعبي».

لا حـول ولا قـوة إلا بـالله، مـا هـذه الكارثـة التـي تلاحقنـي، ثـم لمـاذا تأخـر أبـو بكـر ولـم يـأت إلـى الآن؟ وبالطبـع لـم أكـن قـادرا على النظـر إلـى السـاعة؛ لأن ذلـك يتطلـب الدخول في أحـد القبـور وإضـاءة المصبـاح.

وأخيرا خطر في بالي أن ألزم ذاكرتي باستحضار بعض أشعار الجاهليين التي أحفظها، فإذا بها جميعا تفر من قبضة الذاكرة، ولا يتبقى منها سوى أبيات لتأبط شرا يصف فيها سعلاة بعد أن قتلها، وهي قوله:

إذا عينان في وجه قبيح كوجه الهر مشقوق اللسان
ورجلا مخدج ولسان كلب وجلد من فراء أو سنان

وتصور أمامي هذا المنظر البغيض الكريه المخيف الذي صوره «تأبط» في أبياته.
وهنا سمعت وقع أقدام تسير خارج الخندق، وهذا يعني أنه ليس أبا بكر، فمن تراه يكون؟ أهو حسناء المقبرة؟ أم السعلاة؟ أم الغول؟ أخذت أقرأ ما أحفظ من أذكار الوقاية وخاصة ذكر «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»، ثم استجمعت قواي وصحت: من القادم؟ فقال: أبو بكر، فتجاذبني شعور بالغضب الشديد والرضى الشديد في آن واحد، الرضى لأنه لم يكن سعلاة ولا غولا ولا براكسا نجيب، والغضب لما سببه لي من الخوف والهلع، فقلت له: لماذا تسير خارج الخندق، فأجاب: الظلام دامس والبرد قارص والخندق مليء بالأوحال، ولا خوف من قناصة النظام في هذا الجو، فلا بد أنهم حول المدفئة الآن، وهم غير مستعدين لتحمل هذه المصاعب من البرد والتعب والنصب لقتل شخص مثلي!
ثم نزل وقال: أوشكت نوبتنا أن تنتهي، فأمسكت بالقبضة لأطلب إرسال النوبة التي بعدنا، ولكن يا لسوء الحظ لقد فرغت البطارية، والطريقة الوحيدة الآن هي الذهاب إلى الجب.

فقال أبو بكر: أتذهب أم أذهب؟
وتمنيت أن يكون معي أبو فراس الحمداني ليعطيني حلا ثالثا كما أعطى أصحابه حين قالوا له: الفرار أو الردى! ولكن هيهات لا بد أن أختار أحد أمرين أحلاهما مر، وعلى أي حال البقاء هنا خير من السير وحيدا خمسمائة متر في الخندق المظلم.
فذهب أبو بكر وبقيت وحيدا مجددا، على أن انتظاري لم يطل هذه المرة، فما هي إلا عشر دقات -حسبتها عشر ساعات طبعا- حتى جاءت النوبة التي بعدنا، وتذكرت أني سأعود وحيدا إلى الجب، فصرت بذلك جامعا للأمرين اللذين أحلاهما مر، ولكن هذه المرة أخذت دور أبي فراس فأوجدت حلا ثالثا، وهو أن أبقى مرابطا مع هذه النوبة الجديدة بذريعة أني لا أشعر بالنعاس والتعب، مع أني كنت منهك القوى، وهكذا وجدتني واقفا مع الأخوين في نوبتهما أندب حظي العاثر وأتميز غيظا من صاحبنا المصري.

وقفت قليلا ثم وجدتني غير قادر بحال على المتابعة، ووجدت أن الحل الثالث الذي اخترعته كان سقيما عقيما، فقررت أن أرجع إلى الجب وحدي وليكن ما يكون، فليست السعلاة والغول وبراكسا سوى خرافات لا وجود لها، هذا ما كنت أحدث به نفسي لأشجعها على المضي قدما، وأخيرا أكرهتها وأخبرت الأخوين أني ذاهب إلى الجب، وأخذت أحث الخطى مسرعا غير مبال بكثرة الأوحال.

ولم أقطع سوى مسافة يسيرة حتى سمعت صوتا يشبهه مواء القطط وليس به، فقفز إلى ذهني مسارعا حديث دار مرة لما كنت في زيتان -قرية في ريف حلب الجنوبي- عن حيوان يدعونه القرطة يأتي الرجل من خلفه ثم يقفز على عنقه فيقتله، ثم تبع ذلك تذكري لما قرأته في كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي عن خوف أهل بغداد من حيوان يدعى الزبزب يقتل الأطفال ويقطع أثداء النساء، والقرطة والزبزب حيوان واحد واسمه غرير العسل، أسرعت في سيري أكثر وسقطت مرتين في الوحل قبل أن أصل إلى واحة الأمان في الجب، وما إن دخلته حتى غمرتني فرحة عظيمة وكأني قد ملكت الدنيا.

نزعت جعبتي ووضعت سلاحي قريبا من فراشي، ثم تمددت عليه وبسطت يدي فقبضت على كتاب في حقيبتي كنت قد أحضرته معي لأملأ فراغي في أوقات الاستراحة، وللقراءة قبل النوم لذة عندي لا تعدلها أي لذة أخرى.

كان عنوان الكتاب «معادن الذهب في الأعيان الذين تشرفت بهم حلب» لأبي الوفا العرضي، وهو كتاب تراجم كما هو واضح من عنوانه، وأحب القراءة إليَّ القراءة في كتب التاريخ والتراجم، تناولت الكتاب وأنا أقول في نفسي: سأقرأ الآن سيرا بعيدا عن السعالي والجن والعفاريت وحسناء المقبرة، بدأت القراءة فوجدته يترجم للعلماء والأولياء وعددا من المجاذيب عدَّهم في الأولياء مع غرابة أفعالهم ومنافاتها للإسلام.

ولكن المصيبة أني لم أقطع شوطا طويلا في القراءة حتى وجدته يترجم لخباز ذهب مرة باكرا إلى مخبزه قبل الفجر، فخرج له نفر من الجن وأخبروه أن جنية تحبه وتريد الزواج منه، وبالفعل فقد تزوجها الرجل وذاق منها الأمرَّين، فاسترجعت عند قراءتي لهذه الترجمة!! ما الخطب؟ لماذا الجن والعفاريت في كل مكان؟
وهنا أغلقت الكتاب ونمت وأنا أخشى أن أرى شيئا مخيفا في منامي، ولكن ولله

الحمد مضت الليلة على خير، وكذلك الليلة التي تليها، وعدنا إلى المقر، وبقيت عندي مجازاة صاحبنا المصري على المصيبة التي أوقعني بها، وكنت أعلم أن معظم المصريين يكرهون أكل «المجدرة»، بل إن بعضهم يسميها «المجنزرة».

فقلت لأبي محمد المصري: أنت مدعو على الغداء عندي، فقال: وما الغداء؟ فقلت: لن أخبرك، ولكنه طعام ما ذقته قبل قط، فقال: مستحيل لقد أكلت جميع الأكلات الحلبية، فقلت له: أقسم أنك ما أكلته قبل قط.

وجاء أبو محمد على الغداء، وارتسمت علامات التعجب على وجهه وهو يرى طبق المجدرة الذي بين يديه، ثم قال: هذا هو الطعام الذي لم أذقه قط ؟! فقلت: نعم، فقال: لقد أكلته مرارا وأنا لا أحبه أصلا، فقلت له: لقد أكلت مثله، أما هذا فلم تأكله قط وإلا لما كان موجودا أمامك الآن.

وأكل أبو محمد مكرها، وكنت أستشف من ملامحه أنه ود لو يرميني بطبق المجدرة ويهشمه على رأسي، ولكنه كظم غيظه احتراما لحرمة البيت، ولم أخبره طبعا بسبب هذه العقوبة القاسية.

انتهت.

كان عمر وضاح خمس سنين عندما هبَّ الشعب السوري عام 2011م مطالبا بحقوقه رافضا للظلم والاستعباد الذي عاناه من نظام الأسد الطائفي المجرم، ولذلك فهو يذكر كثيرا تفاصيل الثورة التي تربى في أحضانها ورضع العزة والكرامة من ثُديِّها. إنه الآن يبلغ من العمر خمسة عشر عاما، لقد عاش في ظل الثورة عشر سنين كاملة بحلوها ومرها وعسرها ويسرها وشدتها ورخائها ومحنها ومنحها وانتصاراتها وانكساراتها وفتوحاتها وتراجعاتها.

وقف وضاح في فسحة سماوية وسط معهده الذي يتعلم فيه ويقع في ريف مدينة إدلب، كان الوقت ليلا والهواء النقي يداعب شعره، والنسيم العليل يطبع قُبلا على وجنتيه، طافت الذكريات بوضاح فركب في قطارها يمر على محطات حياته محطة محطة .

تذكر أباه وهو يقول له عندما كان عمره ست سنين وقد أرسله إلى معهد ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ ما تيسر من القرآن مع أحكام الطهارة والصلاة، يقول له: يا بني تعلم العلم وإياك والتهاون في ذلك، فلم يصيرني إلى ما تراه من الفقر والعوز وبؤس الحال إلا الجهل.

ثم حاول والده أن يحبس دمعة رفضت إلا أن تنهمر رغما عنه، وقال وقد أخذ بيد ابنه حتى أتى نافذة في جدار الغرفة: أترى هذه الأراضي الزراعية الشاسعة التي تراها مد البصر؟
فقال وضاح: نعم.

فقال: لقد كانت جميعها ملكي قبل أن يغصبنيها عمك الأكبر.
فقال وضاح: وكيف ذلك يا أبي.

فقال: هذا ما أريد أن أحدثك به، لقد كان جدك رحمه الله لا يهتم بشيء سوى الأرض يحرثها ويزرعها ويأكل من خيرات الله التي تخرجها الأرض ويطعم المساكين، وقد علَّمنا العمل في الأرض منذ كنا أطفالا في عمرك، فلم يدفعنا إلى كُتَّاب ولم يُدخلنا مدرسة، إنما اكتفى بتعليمنا الفاتحة وسورا قصيرة وبعض أحكام الطهارة

والصلاة، حتى زكاة الزروع التي كان يخرجها كل عام لم نكن ولم يكن هو يعرف عنها شيئا، غير أنه كان عند الحصاد يدعو إمام المسجد، ويقول: هذا ما أخرَجَته أرضي فخذ منه حق الله وضعه حيث يجب، فكان الإمام يفعل ذلك.

ثم إن جدك مات إلى رحمة الله، وورثنا نحن أبناءه الثلاثة الأرض؛ فأما أخي الأصغر فلم يكن يحب الريف ولا العمل في الأرض، ويؤثر على ذلك الحياة في المدينة والعمل هناك، فسرعان ما باع نصيبه من أخيه الأكبر وقبض الثمن ومضى إلى المدينة، وأراد أخي الأكبر شراء نصيبي أيضا فرفضت، فهذه الأرض كأحد أولادي وقد شربَتْ من ماء جبيني كما شربَتْ من ماء المزن.

حاول عمك كثيرا وأعطاني سعرا أكثر مما أعطى أخي الأصغر إلا أني أصررت على الرفض، ولما يئس مني قال: إما أن تبيع وإما أن آخذها بغير ثمن جبرا عنك.
فقلت: لن تصل إلى قليل ولا كثير منها طالما أن روحي في جسدي، وظننت أنه سيأخذها بالقوة، ولم أعلم أنه سيأخذها بالغدر والخديعة.

ومضت الأيام وأرسل عمك رجلا ليصالحني وإياه، ولم أكن أعلم أن عمك أرسله، إنما ظننته فاعل خير، وتم الصلح وعادت المياه إلى مجاريها كما يقال، ولم يدر بخلدي أن عمك يمكر ليسلبني أرضي.

وذات يوم أرسل عمك أحد أبنائه يدعوني إلى بيته، فذهبت، فلما دخلت وجدت عمك جالسا وحوله بضعة رجال، وقد ارتدى أحدهم بزة فاخرة، ولا أخفيك يا ولدي أني لم أرتح لهم، ورأيت غضب الله في وجوههم السوداء، فلما جلست قال لي عمك: لقد اشتريت أرضا من هذا الرجل -وأشار إلى أحدهم- في القرية المجاورة، وأريدك أن تشهد على العقد، وهذا -وأشار إلى صاحب البزة- الأستاذ المحامي جاء ليوثق العقد.

فقلت: حبا وكرامة.
ثم التفت عمك إلى الرجل الأول، وقال له: هل قبضت كامل ثمن أرضك؟
فقال الرجل وهو يحاول أن يخفي ضحكة استهزاء: نعم، ولم أعلم بمن يستهزئ وقتها، ثم علمت بعد أنه كان يستهزئ بي.
ثم قال للمحامي: تفضل أستاذ.

فأخرج أوراقا من حقيبته وطلب بطاقاتنا الشخصية، وأخذ ينقل منها بيانات إلى أوراقه، وبما أني أُميٌّ لا أعرف قراءة ولا كتابة فلم أدر ما يفعل.
ثم التفت إليَّ المحامي، وقال: وقع هنا.

فقلت: أما التوقيع فلا أعرفه، ولكن أبصم.
فقال: ضع بصمتك هنا.
فبصمت.
ثم التفت إلى عمك، فقال: أتبصم أم توقع؟
فقال: بل أبصم.

ثم وقع رجلان من الحضور، وشربنا الشاي، وانقضى المجلس، ثم انصرفت وأنا فرح بأن أخي اشترى أرضا في القرية المجاورة.

وبعد أسبوع فوجئت برجل يأتيني في أرضي ويخبرني أن أخي رفع عليَّ دعوى يطالب فيها بأن أفرغ له أرضي؛ لأني بعته إياها.

فقلت: كيف ذلك؟ أنا لم أبع أرضي لأحد، وأردت أن أقص على الرجل قصة الأرض كاملة منذ وفاة جدك.

إلا أن الرجل قاطعني، وقال: عذرا يا عم، ليس لي علاقة بهذا، إنما وظيفتي أن أبلغك بموعد الجلسة في المحكمة، ثم أعطاني ورقة وانصرف.

وأدركت أن عمك قد خدعني واستغل جهلي بالقراءة والكتابة فبصمت على بيع أرضي وأنا أظن أني شاهد، وأن الحاضرين كانوا شهود زور اتفق عمك معهم ومع المحامي.

ولما حان موعد الجلسة القضائية ذهبت وقصصت قصتي على القاضي، فلم يقبل مني، وجاء شهود الزور فوضعوا أيديهم على كتاب الله وحلفوا كذبا وزورا، وقُضي لعمك علي، وخسرت أرضي بأسرها، وعدت مَسُودا بعد أن كنت سيدا، وأجيرا بعد أن كنت رئيسا، وآخذا للزكاة بعد أن كنت معطيها، ومسكينا بعد أن كنت متصدقا على المساكين، وموضع إشفاق الناس ورحمتهم بعد أن كنت محل رجائهم.

مكثت أياما لا أقابل أحدا ولا ألتقي به، ولا أقوى على عمل، إلا أن بكاءك وأنت رضيع وتضاغي إخوتك ودموع أمك التي لا تنقطع أجبرتني على الخروج لأبحث عن عمل، إلا أني آثرت قبل ذلك الذهاب إلى عمك وتذكيره أواصر القربى بيننا، وما آل إليه حالنا، علّ الرحمة تهتدي إلى قلبه فيرق لنا ويرد حقنا، فلما وصلت وطرقت الباب خرج أحد أبناء عمك، وقال: ماذا تريد؟ ولم يقل لي: تفضل بالدخول، مع أننا نقولها لذلك الغريب الذي لم نره قط عندما يطرق الباب.

فقلت له: أين والدك؟

فقال: في الداخل.

فقلت: ادعه لي.

وقبل أن يدخل كان عمك قد سمع صوتي فخرج ووقف أمام الباب، وقال: ماذا تريد؟

فقلت له: أطفالي يبكون جوعا.

فابتسم ابتسامة ماكرة، وقال: حقك علي، طرقت باب كريم، ثم أخرج مبلغا من المال، وقال: خذ واشتر لأولادك ما يشبعهم، وإذا لم يكفك هذا المبلغ فعد إلي أزيدك.

فابتلعت هذه الإهانة على مضض، وقلت: أعد أموالك إلى جيبك، فلست بحاجة لها، إنما أريد أرضي.

فقال: أي أرض؟

قلت: أرضي التي اغتصبتها مني.

فقال: لم أغتصب منك شيئا، إنما بعتني إياها وبصمت على العقد وشهد على ذلك الشهود، ثم لم ترض بذلك كله حتى حكم القضاء لي بها.

فقلت له: هذا الكلام تضحك به على غيري، أما أنا فأنت تعلم أني أعلم أنك مكرت بي وسلبتني أرضي.

فقال: إن شئت دفعت لك مائة ألف وتكف عن قولك للناس: إني سلبت أرضك.

فقلت له: يا ظالم أرض ثمنها خمسة ملايين تريد أن تعطيني ثمنها مائة ألف.

فقال: إذن اعمل في الأرض وأعطيك ثلاثة أضعاف أجر العامل، وقوت سنتك من الأرض، فأن تعمل عند أخيك خير من أن تعمل عند الغريب.

فقلت له: لأن أسف المل وأمص الحصى خير لي من أن أعمل عندك.
وأنا أعلم يا ولدي أنه كان يريدني أن أعمل عنده ليقول الناس: إني بعته الأرض فعلا ولم يأخذها غصبا.

ثم وليت ظهري لعمك وانطلقت باحثا عن عمل، والحياء يأكل وجهي، فعند من أعمل؟ ولمن أكون أجيرا؟ إلا أنه لا بد مما ليس منه بد، فذهبت إلى أحد أصدقاء جدك في القرية، وكان قد سمع بقصتي، وطلبت منه أن يستعملني في أرضه، ففعل، وعملت عنده سنتين، وكانت الأجرة بالكاد تكفيني.

ثم علمت أن عمك أصيب بمرض السرطان وأن المرض استشرى بجسده بصورة كبيرة، وهو يمضي ليله يصرخ ألما، والحق أقول لك يا بني: إن الدم لا يتحول ماء، لقد تألمت لما نزل بعمك، وهممت بعيادته مرارا، إلا أن نفسي لم تطاوعني.

ولم تمض سوى أيام إلا وابن عمك يأتيني، فيقول: إن أبي يريد رؤيتك.
فقمت فانطلقت مسرعا حتى أدخل عليه، فلما دخلت سلمت، ثم أشار إلي بالجلوس، فجلست، وقال لابنه: اخرج وأغلق الباب خلفك، ففعل، فنظر عمك إليَّ، وقال: هذا وقت لا ينفع فيه الكذب، أنا أعلم أن ما حل بي هو بسبب أرضك، وقد أراني الله عدة آيات فلم أتعظ ولم أعتبر.

ثم سكت قليلا، ثم قال: أتذكر المحامي الذي وثق عقد البيع المزور؟ لقد نام وترك المدفأة مشتعلة فسرت النار في بيته فأحرقت البيت، وكاد أولاده أن يموتوا خنقا لولا لطف الله، أما هو فقد أصيب بحروق من الدرجة الثالثة، فلما بلغني الخبر أخذ ضميري يؤنبني فأُسكته، وقلت: صدفة.

وبعد شهر علمت أن أحد شهود الزور كان يعمل في معمل لصناعة الكراسي البلاستيكية، فلما حاذى إحدى الآلات انزلقت قدمه، فاتقى السقوط بوضع يده اليمنى على الآلة فقطعت يده التي وضعها على كتاب الله وحلف كذبا، وعاد ضميري يؤنبني، فقلت: عامل أحمق لا يجيد التعامل مع الآلات.

ثم بلغني أن الشاهد الثاني بينما يصلح الكهرباء في بيته وهي مقطوعة إذ عاد التيار فجأة وأمسكه ولم يفلته إلا وقد شلت يده اليمنى، فلما بلغني، قلت: عجبا

لهـذا الجاهـل أمـا كان يعلـم أنــه لا بـد مـن إنـزال القاطـع الكهربائـي قبـل التعامـل مـع الكهربــاء.

فلـم تنفعنــي تلـك الآيـات جميعـا حتـى نـزل بـي مـا تـرى مـن المـرض، ثـم صـرخ مـن الألـم صرخــة منكــرة دفعــت أحــد أولاده أن يركــض ويفتــح البــاب، ظانــا أنــي أنتقــم مــن أبيــه، وتتابـع الصـراخ منـه، وكان صراخـا يفتـت الأكبـاد، ثـم هـدأ قليـلا، وقـال: هأنـذا أموت وأرجــو منــك أن تســامحني!
فقلت له: رد إليَّ أرضي حتى أسامحك.

فقال: يا ليت، ولكن فات الأوان!
فقلت: ماذا تقصد؟
فقال: لقد وزعتها على أبنائي الذكور وسجلتها بأسمائهم.
فقلت: اجمعهم فأخبرهم بالحقيقة.
فقال: لن يرضوا بذلك.

ثـم نـادى أبنـاءه الذكـور، فاجتمعـوا جميعـا، وكانـوا أربعـة، وقـال لهـم: يـا أبنائـي إنـي ميـت عمـا قريـب، وقـد قدمـت في حياتـي كل مـا أقـدر عليـه، وإن الأرض التـي تعرفـون هـي لعمكـم، وقـد أخذتهـا منـه غصبـا، فـإن كانـت لـي عندكـم كرامـة فـردوا الأرض إلـى عمكــم وأنقذونــي مــن عــذاب الله غــدا.

فأطرقوا رؤوسهم جميعا ولم يردوا عليه بكلمة، فقال: أجيبوني ما لكم؟
فسـكتوا، ثـم قـال أحدهـم: لا بـد أن شـدة الألـم جعلـت أبانـا يهلـوس ولا يـدري مـا يقـول، ثـم التفـت إلـي بوجـه عبـوس كالـح، وقـال: انصـرف أيهـا الرجـل فليـس لـك عندنـا شـيء.
فقلت: أنتم دعوتموني ولم آتكم، ثم نظرت إلى عمك.

فقال: ألم أقل لك: إنهم لن يرضوا؟
ثم ما لبث بعدها إلا قليلا ومات.
وهـا أنـت يـا بنـي تراني كيـف أتعـب وأشـقى لأوفـر لأسـرتي مسـتلزماتها، ولـو كنـت أعــرف القــراءة والكتابــة لمــا وقعــت في تلــك الداهيــة.
شـعر وضـاح بالألـم يعتصـر فـؤاده لحـال أبيـه، ثـم سـار بـه قطـار ذكرياتـه إلـى محطـة أخــرى مــن محطــات حياتــه.

تذكر وضاح نفسه وعمره ثماني سنين وهو يذهب إلى المدرسة في الصباح وإلى معهد القرآن بعد الظهر، ثم يعود عصرا إلى البيت ليأخذ طعام الغداء وينطلق به إلى أبيه في الحقل، ثم يعود أدراجه إلى البيت. وفي ذات يوم عاد من معهد القرآن وكالعادة أعدت أمه طعاما ليأخذه إلى أبيه الذي لا يزال يعمل في الحقل منذ الصباح وقد لفحه هجير الحر وكوته الشمس بسياطها، يأخذ وضاح الطعام بعد أن طبعت أمه قبلة على وجنته، ولم يخطر في باله قط أن هذه هي المرة الأخيرة التي يرى فيها أمه على قيد الحياة، أو أن هذه القبلة ستكون الأخيرة.

مضى وضاح ككل الأطفال يركض تارة، ويمشي أخرى، ويتوقف ثالثة ليتأمل طائرا يبحث عن طعام لفراخه أو ليرقب دودة صغيرة تزحف ببطء بين التربة أو ليمتع ناظريه برؤية بعض النباتات بديعة الشكل، ثم يدرك أنه تأخر على أبيه فيعاود الركض، وأخيرا وصل إلى حيث يعمل أبوه فيقبل يده ثم يناوله الطعام، ويقف وضاح قليلا ليسأله والده عن حال أمه وإخوته في البيت، ثم يسأله عن دراسته ويستخبره عما حفظ اليوم من القرآن أو نقشه في ذاكرته من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

وبينما الوالد وابنه يتجاذبان أطراف الحديث؛ إذ نادى المراقب في المرصد عبر القبضة: يرجى الانتباه وأخذ الحيطة والحذر، حربي روسي في الأجواء.

ولم تكن تلك الكلمات إلا شيئا متكررا اعتاده الناس وألفوه، ومع عجز الفصائل عن إيجاد حل يتصدى لهذا الطيران المجرم الذي يوقع يوميا العشرات من الشهداء اتخذ الناس من الإيمان بالقدر والدعاء مسلاة لهم، فما إن يسمعوا بخبر تحليق الطيران حتى يبادروا ويقولوا: «اللهم بردا وسلاما، اللهم اجعل كيدهم في نحرهم»، ثم يتابعوا حياتهم قائلين: «إللي إلو عمر ما بتقتلوا شدة»، و (لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)، وربما زاد بعضهم فتفلسف قائلا: «لا داعي أن نخاف من القصف؛ لأن سرعة الصاروخ والقذيفة أكبر من سرعة الصوت لذلك ما سيقتلك لن تسمع صوته».

وفجأة انقضت الطائرة ونفثت حممها محدثة دويا عظيما وانفجارا كبيرا، نظر أبو وضاح إلى الدخان المتصاعد، وخمن أن القصف وقع قريبا من منزله، فأصابه الهلع وطلب من وضاح أن يبقى هنا ريثما يذهب فيطمئن على أهل بيته ثم يعود، وانطلق يُغِذ السير مسرعا، وربما حمله الخوف على أهله فأطلق العنان لساقيه

يسابق بهما الريح، حتى وصل فرأى أن القصف وقع قريبا من داره ولكنها لم تصب بأذى، فدخل البيت مهنئا أهله على السلامة معانقا صغاره فرحا بنجاتهم، ثم همَّ بالخروج والعودة إلى الحقل، وما إن خرجت إحدى رجليه من الباب حتى انقض صاروخ جديد محطما الدار ممزقا من فيها من البشر، مفتتا ما بنيت به من الحجر، جاعلها أثرا بعد عين، وركاما من الحجارة.

ظل وضاح ينتظر قدوم أبيه غير عالم بما جرى حتى أوشكت الشمس على المغيب، وخشي أن يحل الظلام ولا يقدر حينئذ على العودة وحده خوفا من الكلاب أو بنات آوى التي تنتشر مساء بحثا عن طعامها، فآثر أن يرجع إلى الدار، وانطلق يغذ الخطى نحو بيته، ولما وصل رأى الناس متجمعين حول تلة من الأحجار والأتربة كانت منزلا في السابق.

أخذ وضاح يتصفح وجوه الناس كالمجنون ويعدو هنا وهناك بحثا عن أبيه أو أمه أو أحد إخوته ولكن دون جدوى، ولم يرغب أحد أن يصدع قلبه الصغير ويخبره بالحقيقة التي لم يكن أحد قادرا على إخفائها.

وأخيرا جاءت خالة له فضمته إلى صدرها وهي تبكي، فسألها سؤاله البريء: أين بابا وماما وإخوتي؟ فقالت: لقد رحلوا إلى الجنة، وانهمرت الدموع غزيرة من عينيه فقد كان يحاول مغالطة نفسه كثيرا قبل سماعه هذا الخبر، ويحاول إقناعها أنهم خرجوا من البيت قبل أن يصبحوا ركاما.

كان الدفاع المدني قد فرغ من رفع الأنقاض وإخراج الجثث المغبرة، ألقى وضاح نظرة أخيرة على أسرته قبل أن تمضي به خالته وتوصي بعض الأشخاص أن يصحبه إلى دارها بينما تقوم بوداع أختها.

تحول وضاح ليعيش في بيت خالته «وفاء»، كانت وفاء في منتصف العقد الثالث من عمرها، وهي امرأة كمعظم نساء الريف لم تحظ بقسط وافر من التعليم، وبالكاد تستطيع القراءة والكتابة، فقد أُخرجت من المدرسة عندما كانت في الصف الثالث الابتدائي لترافق أسرتها وتعينهم على العمل في أرضهم الزراعية، وإلى ذلك فوفاء امرأة متدينة تخاف الله وتتقي المحرمات، ولكن يشتمل تدينها على خرافات تخالف عقيدة الإسلام الناصعة. أما زوجها دحَّام فرجل جلف غليظ قاسي القلب

قليل الدين، يقدم المال على كل شيء، وقد اشتهر عنه قوله: «مستعد لبيع أبي مقابل المال»، وقد عانت وفاء من زوجها الشرير الظالم كثيرا.

ولكن العادات والتقاليد المهترئة ونظرة المجتمع القاسية إلى المرأة المطلقة أجبرتها على كتم جراحها والصبر على أذى زوجها وعنفه وقسوته؛ فيجب على وفاء أن تستيقظ مبكرا جدا فتعتني بالداجن، ثم تعد طعام الغداء [هذا اسمه الصحيح لغة]، ثم تنظف الصحاف والآنية بعد ذلك وتستعد للانطلاق لتعمل في الأرض الزراعية، ثم تعود ظهرا لتعد وجبة طعام أخرى وتنظف البيت وتنشغل بشؤونه، بينما زوجها قاعد في المضافة مع رفاقه وأولاد عمه، فإذا حل المساء ومضى منه هزيع قام دحام إلى فراشه وربما كان متضايقا من أمر ما فيفرغ غضبه وسخطه في زوجه، وقد يتطور الأمر إلى ضربها.

كانت وفاء تخشى أن يعارض زوجها ضم وضاح إلى بيته، فهي تعلم حرصه على المال وبخله به، ولكنها فوجئت بزوجها يستقبل ابن أختها وضاح أجمل استقبال وأحسنه، ويرحب به أفضل ترحيب، فظنت أن قلبه رق لهذا اليتيم المسكين الذي فقد أسرته كاملا وأضحى كالفرخ الملقى على قارعة الطريق في ليلة مطيرة شاتية. والحق أن ظن وفاء كان في واد وتفكير دحام في واد آخر، فقد رأى في وضاح صيدا ثمينا لا يفرط في مثله إلا أحمق، وبالطبع لم يدر في خلده ما ورد من فضل في كفالة اليتيم وحسن رعايته والعناية به وإكرامه، بل كان ما سيطر على تفكيره هو العائد الدنيوي الذي سيناله من المنظمات التي سيسجل فيها وضاح لتقدم له كفالة شهرية، وحتى يُعمِّي ذلك على الناس فقد اتخذ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى» اتخذ من هذا الحديث جُنة يتقي به ظنون الناس، فكان كلما جلس مجلسا ذكر هذا الحديث وتفاخر بما منَّ الله به عليه من كفالة هذا الضعيف المسكين...

استشهدت عائلة وضاح وأصبح يتيما، وتكفل دحام زوج خالته وفاء برعايته، وفور قدوم وضاح إلى البيت سارع دحام باصطحابه إلى مركز إحدى المنظمات التي تكفل الأيتام وتقدم لهم يد العون والمساعدة، وهناك دون اسم وضاح في جدول الأيتام الذين تكفلهم تلك المنظمة وتكفلت المنظمة بخمسين دولارا شهريّا مع بعض المساعدات العينية التي تأتي في المناسبات كلباس العيد وهداياه، ولكن دحاما توسل لهم بأن هذا الطفل فقد أباه وأمه وإخوته وليس مجرد يتيم فقط، وأنه

يحتاج لرعاية خاصة، فاستثنته المنظمة وجعلت كفالته مائة دولار شهريا وليست خمسين دولارا كبقية اليتامى.

وعند حلول رأس الشهر قبض دحَّام المائة دولار ثم عاد إلى زوجه متصنعا الورع مرائيا بالقناعة والزهد، وقال لها: اسمعي يا امرأة، أنا سأقف مع هذا اليتيم وسأراعيه جدا وأعامله أفضل معاملة، وسأحتسب ما أنفقه عليه زيادة عن المائة دولار لوجه الله تعالى.

فذهلت المرأة وفغرت فاها من الدهشة، وقالت: مائة دولار وزيادة؟!
فقال: هذا هو الواقع، ولكني أريد أن أكسب أجرا في هذا اليتيم.
وصدمتها إجابة زوجها جدا، وهمّت أن تصرخ وتقول له: يا ظالم اتق الله، هذا يتيم لا حول له ولا قوة، تريد أن تستولي على ماله، ألا تخاف الله؟ ولكنها خشيت بطشه وتجبره، واكتفت بأن قالت له: أظن الأمر غير ذلك.
فتغير وجه دحَّام وارتفعت نبرة صوته مع حدة شديدة، وقال: تعالي احسبي بالورقة والقلم.

خمسة وعشرون دولارا أجرة سكنه، علما أننا لو أردنا استئجار بيت له فلن نجد بأقل من خمسة وثلاثين، إضافة إلى أن بيتنا مفروش بالأمتعة التي يحتاجها من الأثاث والفرش.

وخمسون دولارا ثمن طعام وشراب إفطار وغذاء وعشاء وفواكه وحلو ومشروبات، وخمسة وعشرون دولارا للملابس والكهرباء والماء والدواء، وخمسة وعشرون دولارا للدراسة والألعاب والأعياد والتنقلات، وخمسة وعش..

قاطعته وفاء: كفى كفى، ونظرت إلى زوجها فرأت الشرر يتطاير من عيونه، وكأنه ينتظر كلمة معارضة ليعصف بها ويحول جلدها إلى ألوان قوس قزح، فلم تملك إلا أن قالت له: جزاك الله خيرا.

فقال بابتسامة خبيثة: هذا الكلام الذي يسمع، ولا يشكر الله من لا يشكر الناس.
كانت نفس دحام قد بلغت الحضيض في الدناءة والطمع، فكان شيطانه يسول له ليسرق مزيدا من المال باسم هذا اليتيم، فكان كثيرا ما يتحدث في مجالسه

وبين معارفه أن الحياة صعبة، وأنه يتحمل ويضحي من أجل هذا اليتيم الذي جاء في زمن الحرب، فكان كثير ممن يسمعون هذا الكلام يرسلون لدحام كل فترة أموالا وإغاثات لأجل أن يرعى هذا اليتيم الذي عنده.

مرت الشهور والسنون سريعة، وبدأ وضاح يدرك الظلم المحيق به من قبل زوج خالته دحَّام، إلا أن أشد ما كان يؤلمه ويحز في نفسه ويستثير غضبه عندما يسمع دحَّاما وهو في مجلسه يتكلم عن اهتمامه بيتيمه ورعايته واحتساب الأجر في ذلك، ثم يتبع ذلك بالترهيب من أكل أموال اليتامى، وما أعد الله لمن يأكل أموال اليتامى من أليم العذاب وشديد العقاب، ويختم حديثه بذكر تفاهة الدنيا وحقارتها وأنها لا تستحق أن يضيع الإنسان آخرته لأجلها.

كان وضاح عندما يسمع هذا الحديث يود لو أنه تحول إلى بركان ثم انفجر في وجه دحام فأحرقه وأحرق معه نفاقه السمج الممجوج، فلا أقبحَ من خائن لص يدعي الشرف والأمانة، وقد همَّ مرارا أن يصرخ في وجهه أمام الضيوف كفاك كذبا ونفاقا أيها المجرم، إلا أنه آثر السلامة ورأى نفسه في غنى عن حماسة لا تُحمد عقباها، حتى كان ذات يوم واجتمع دحام كعادته بضيوفه وابتدأ يعيد موعظته الكاذبة، ولكنه هذه المرة أضاف إليها فقرة جعلت صواب وضاح يطيش؛ فقد ذكر أنه اضطر من أجل الإنفاق على وضاح إلى بيع أسورة زوجته الذهبية كي لا يشعر وضاح أنه أقل من رصفائه ولا يحس بمرارة فقد الأب والأم.

سرى التوتر في كل ذرة من ذرات جسم وضاح، فصرخ بصوت عال: كفى كفى كفاك كذبا ونفاقا، ألا يكفيك أنك تسرق الأموال التي تأتيني من المنظمة والتي تتسولها باسمي ثم أنت اليوم تكذب باسم خالتي وذهبها؟ أما لك دين يردعك أو خلق يرفعك؟

دارت الأرض بدحام وشعر بخزي شديد مع غضب عارم، وود لو أن الأرض فتحت فاها وابتلعته، ولكي يدرأ عن نفسه التهمة التي وصمه بها وضاح وبدا أن الجمع قد تلقوها بالتصديق والقبول، أخذ يعدد أفضاله على وضاح ثم اتهمه بنكران الجميل، وعلم دحام في قرارة نفسه أن زمن السرقة باسم اليتيم قد انتهى، وأن اليتيم أصبح شابا يصعب ترويضه، عندها أمر بطرد وضاح من المنزل، وحتى يقطع الطريق على كل محاولة إصلاح قد تأتي مستقبلا فإنه أتبع الطرد بحلفه بالطلاق ثلاثا ألا يعود إلى المنزل ثانية.

خـرج وضـاح كاسـف البـال حزينـا، ولكنـه لـم يداخلـه شـعور بالنـدم قـط على مـا فعـل، فهـو واثـق مـن صـواب فعلـه وموقـن بـأن الله سـينتقم لـه، وقـد يمهـل الله الظالـم ويؤخـر عقوبتـه حينـا لكنهـا لا محالـة واقعـة ومحيقـة بـه.

سـمع شـيخ القريـة بقصـة وضـاح ذلـك اليـوم فسـارع بالبحـث عنـه حتـى وجـده فأخـذ يلاطفـه ويخفـف مـن حزنـه ويحـاول رفـع ركام الألـم الجاثـم على صـدره حتـى انشـرح صـدر وضـاح وسـلا عـن حزنـه، ولكـن لا زالـت أمامـه عقبـات كثيـرة، فأيـن يسـكن؟ وكيـف يواجـه مصاعـب الحيـاة؟ غيـر أن شـيخ القريـة أزال مخاوفـه كلهـا عندمـا عـرض عليـه أن يُدخلـه معهـدا داخليـا يتعلـم فيـه مـا ينفعـه ويكفيـه مؤنـة مـا سـبق.

سـار قطـار الذكريـات بوضـاح بعـد أن اسـتعرض غـدر عمـه بوالـده ثـم غـدر زوج خالتـه بـه، وهـو الآن يسـتعرض بذهنـه مرحلـة حياتـه الجديـدة ومشـهد دخولـه المعهـد وجلوسـه بيـن زملائـه الطلبـة، ثـم دخـول المـدرس عليهـم، واسـتمر في ذكرياتـه حتـى أحـس بيـد زميلـه تحـط على كتفـه لتوقظـه مـن ذكريـات الماضـي وتسـوقه إلـى واجبـات الحاضـر، التفـت وضـاح إلـى زميلـه الـذي سـأله: مـا لـك شـارد هكـذا يـا وضـاح؟ هـل أنهيـت حفـظ دروسـك؟
وهنـا نفـض وضـاح همـوم الماضـي عـن جنبيـه ليعيـش يومـه الحاضر ويسـتعد لمسـتقبل يرجـو أن يكـون أفضـل مما سـبقه.

انتهت.

دعوة العجوز

أشارت الساعة إلى السابعة والنصف صباحا، وأخذ المنبه يرن بشدة مزعجة وكأنه مطرقة تطرق الرؤوس وتصك الآذان، آه كم أكره صوت المنبه، ربما أكرهه أكثر من صوت القذائف التي تتساقط يوميا على مدينتنا الحبيبة حلب.

أسكتُّ المنبه بتسخط، ثم نهضت استعدادا للسفر مع الشيخ أبي عبادة إلى سراقب، فهناك عدد من الأمور الإدارية يجب أن ننتهي منها قبل حلول رأس الشهر. بالنسبة لي فأنا أعرف الشيخ أبا عبادة منذ عامين، أعرف فيه الخلق الحسن والبذل والتضحية والصبر ومحبة الخير للمسلمين وعلو الهمة في العلم والعمل، ولكن هذه هي المرة الأولى التي سأسافر فيها معه، بل هي المرة الأولى التي أركب معه في سيارة واحدة.

غسلت النوم عن عيني بوضوء بارد منعش في أيام الصيف هذه، ثم صليت ركعتي الضحى، وما إن فرغت حتى كانت زوجتي قد فرغت أيضا من إعداد الفطور، تناولت لقيمات قليلة ثم جلست أرتشف رشفات من فنجان القهوة شرابي المفضل، وما إن جاوزت عقارب الساعة الثامنة بقليل حتى تلقيت تنبيها على القبضة، فقد وصل الشيخ أبو عبادة، لبست حذائي ثم مضيت مسرعا حيث شاهدت الشيخ أبا عبادة في سيارته ينتظرني، ألقيت عليه السلام ثم صعدت وجلست بجانبه، تبادلنا التحية والسؤال عن الأحوال والأهل والصحة، ثم ساد الصمت في السيارة، الصمت الذي لا يشقه إلا هدير المحرك أو تنبيهات الزمور التي يطلقها الشيخ أبو عبادة أثناء قيادته السيارة حين يستدعي الأمر ذلك.

لم نجاوز دوار الشعار إلا بمسافة حتى أشار شابان للشيخ أبي عبادة فتوقف، وأقبل الشابان فألقيا السلام، ثم قالا: نحن ذاهبون إلى منطقة الشقيف، فقال لهما الشيخ: تفضلا، صعد الشابان في المقعد الخلفي للسيارة ومضت السيارة في طريقها حتى وصلت الشقيف حيث نزل الشابان بعد أن أهداهما الشيخ أبو عبادة كتيب حصن المسلم لكل واحد منهما، ومن عادة الشيخ دائما أن يحمل عددا من هذا الكتيب النافع ويهدي منه كل من صادفه في الطريق من شباب الحواجز أو من يصعد مع الشيخ في السيارة.

وبعد أن قطعنا منطقة كفر حمرة أشار إلينا رجل مع أسرته فتوقف الشيخ وحمله، ثم نزل الرجل وأسرته بعد قريتين.

ولما دخلنا منطقة أورم أشارت امرأتان مع شاب صغير فحملهم الشيخ في طريقه، وكان جميع من صعد معنا يدعو لنا قبيل نزوله بالحفظ والنصر.

وبالمختصر لم نصل سراقب حتى بلغ عدد من أشار إلينا وصعد معنا تسعة أشخاص.
أمضينا في سراقب بضع ساعات أنهينا فيها ما يجب علينا إنهاؤه، ثم صلينا الظهر وتناولنا كوبا من العصير البارد وتوجهنا إلى السيارة لتبدأ رحلة العودة إلى حلب.
لم نسر بالسيارة إلا مسافة يسيرة حتى أشار إلينا رجل ومعه كيس كبير، وكان من الواضح أن الشمس لفحت الرجل بحرها فأخذ العرق يتصبب منه بغزارة، ولما رآه الشيخ أبو عبادة قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كان الله بعون هؤلاء المساكين، ثم وقف حتى صعد الرجل وأصعد كيسه، وانطلقت السيارة في طريقها.

ولما نزل الرجل بعد وصوله إلى قريته قلت للشيخ أبي عبادة: يا شيخنا الكريم إن مساعدة الناس ورحمتهم والإشفاق عليهم أمر في غاية الحسن، ولكن أنت ترى الأوضاع الأمنية المتردية التي نعيشها وجرائم الاغتيالات والخطف التي تقوم بها خلايا الخوارج المفسدين، فلو أخذت حذرك وكففت عن حمل كلِّ من أشار إليك وأنت في سيارتك.

فقال لي: عجبا لك، أتنهاني عن معروف أقوم به، لقد خاب ظني فيك.
فأجبت: معاذ الله أن أنهاك عن معروف، إنما أنهاك عن الاستهتار بنفسك، فإنك لا تدري لعل داعشيا يشير إليك ثم يقوم بقتلك أو خطفك، خاصة وأنت كثيرا ما تسافر وحيدا.

فقال لي: لقد حدث ذلك فعلا.
فدهشت وقلت: حدث ماذا؟
قال: حدث أن خطفني داعشيان.
فقلت: كيف ذلك وكيف نجوت منهما.
فقال: نجوت بدعوة العجوز.
فقلت: أي عجوز؟ حدثني بالقصة من أولها.

فقال: هي ليست قصة بل اثنتان؛ قصة العجوز وقصة الدواعش.
فقلت: دع عنك التدقيق وحدثني.

فقال: حسنا، وسأبدأ بقصة العجوز؛ فذات يوم وبينما أقود سيارتي في برد قارص أشارت إلي عجوز طاعنة في السن قد حفر الدهر أخاديد في وجهها وقوست السنون ظهرها، فوقفت لها حتى صعدت، ثم أخذت تشكو إلي أنها منذ أكثر من نصف ساعة وهي واقفة تنتظر أن يقلها أحد في سيارته، وقد أشارت إلى عدد من السيارات فلم يعرها سائقوها انتباها، ثم أخذت تدعو لي بأدعية كثيرة، وأنا أؤمن على دعائها وأقول: ولك بمثل إن شاء الله يا خالة، حتى وصلت حيث تريد فنزلت وقالت لي: «أسأل الله أن يحفظك من الحكام والظلام وأولاد الحرام»، ومضت في طريقها ومضيت في طريقي.

ومرت الأيام وبينما أنا أقود سيارتي في إحدى القرى القريبة من مطار أبي الظهور أشار إلي شابان لم يعجبني منظرهما ولكني وقفت لهما وقلت في نفسي: لعلي أنصحهما ويجعل الله هدايتهما على يدي، ولما صعد الشابان ابتدأت أسألهما عن أخبارهما وأعمالهما، فأخبراني أنهما يعملان في البناء، فقلت: أنتما شابان ممتلآن حيوية وقوة، ولا بد أن تجاهدا في سبيل الله، ألا تريان ما يفعل النظام المجرم من تقتيل وتشريد.

فقالا لي: وهل أنت مجاهد؟
فقلت: طبعا إذ كيف آمركم بأمر وأغفل عنه، قال: ولم أدر أني أوقعت نفسي بجوابي هذا.

فما إن سمعا ذلك مني حتى وضع أحدهما مسدسه في رأسي وقال لي: اتجه يمينا يا مرتد.

فعلمت حينها أنهما من خلايا الخوارج ولم يكن بمقدوري إلا أن أسير حسب إرشادهما، وأخذت أفكر كيف يمكن أن أتخلص من هذه الورطة التي وقعت فيها، واتجهت بقلبي إلى الله أستغيثه وأسأله الفرج وأدعوه دعاء المضطر، وتذكرت قصة قرأتها في صغري تحرك جانب المروءة في الإنسان، وهي أن راكبا كان يسير في الصحراء فوجد رجلا ملقى على الأرض يشير إليه، فلما نزل ليعين الرجل الملقى نهض ذاك

الرجل وأشهر سيفه وأراد أن يقتل الراكب ويسلبه متاعه، فقال له الراكب: يا هذا إذا قتلتني وأخذت سلبي فلا تحدث أحدا بقصتي حتى لا تضيع المروءة في الناس ويزهدوا في إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج، فاستحيا قاطع الطريق وتاب إلى الله تبارك وتعالى وترك ما كان فيه من الإجرام.

فقلت لهما: يا هذان اسمحا لي بكلمة فقط.
فقالا: ما تريد؟
فقلت: إذا قتلتماني فلا تحدثا الناس بالطريقة التي خطفتموني فيها حتى لا تضيع المروءة بين الناس.
فقالا لي: اهتم لنار جهنم التي سنزفك إليها بعد قليل ودعك من أمر الناس.
وأصبت بخيبة أمل شديدة لدى سماعي جوابهما، وحاولت أن أناقشهما لماذا أنا مرتد؟
فقالا لي: ستعلم ذلك بعد أن تدخل جهنم.

ثم وصلنا إلى بيت في طرف قرية نائية فأنزلاني وقيداني في إحدى الغرف.
وقال أحدهما للآخر: هل نذبحه الآن أم نتركه إلى الغد؟
فقال الثاني: دعنا الآن نغير ملابسنا ونأكل لقمتين أولا ثم نذبحه.

وأخذت أتضرع إلى الله وأتوسل إليه بكل عمل صالح لي عملته، وأقول: يا رب لا تجعل فعلي الخير سببا لقتلي، يا رب أنت تعلم أني أردت بحملهما مرضاتك، يا رب إنك لا تصلح عمل المفسدين وإن هؤلاء من المفسدين، يا رب انتقم منهما جزاء غدرهم.

وبينما أنا مستغرق في دعائي إذ قال أحدهما للآخر: تعال ساعدني في نزع حزامي الناسف، فلما جاء الآخر وأخذ يعالج الحزام الناسف لينزعه سحب الصاعق بالخطأ فانفجر الحزام وقتل الخارجيان، وسمع أهل القرية الانفجار فأقبلوا إلى البيت الذي أنا فيه وأخذوا يصيحون: ما الذي جرى، فقلت: أنا هنا ساعدوني، النجدة، فكسروا قفل البيت، وأنقذوني بفضل الله تعالى.

خرجت من المنطقة، وقلت في نفسي: لن أقف بعد اليوم لأحد يشير لي كائنا من كان، ولو رأيته يتشحط بدمائه.

ولما وصلت بيتي وأخلدت إلى النوم أتاني آت في منامي، فقال: بئس ما نويت من الكف عن حمل الناس، أتعلم بم أنجاك الله؟
فقلت: بمَ.

فقال: بدعاء العجوز حين قالت: «أسأل الله أن يحفظك من الحكام والظلام وأولاد الحرام» وإن هذين من الظلام، فكن في عون إخوانك يكن الله في عونك.
ثم استيقظت وآليت على نفسي ألا يشير إلي أحد إلا وقفت له وحملته ما دام ذلك ممكنا .

انتهت.

حمدون الحطاب

اعتاد حمدون أن يخرج كل يوم من بيته عندما تمد الشمس أذرعها الدافئة لتحتضن بها الأرض فيقصد إلى الإسطبل ليخرج حماره وينطلق به إلى الغابة فيمكث فيها بضع ساعات يجمع الحطب ثم يجعله في حزم ويضعه على ظهر الحمار ويقصد به السوق ليبيعه ويكسب نفقة يومه بشرف من عرق جبينه، ولا يحتاج أن يتسول الناس أو أن يقف بباب اللئام، وكان دائما يقول: «لأن أسفح عرق جبيني في كسب المال خير من أن أريق ماء وجهي عند اللئام».

لم يكن ثمن الحطب الذي يكسبه يوميا يفيض عن حاجته، بل كان بالكاد يكفيه، وإن حدث ولم يخرج حمدون لجمع الحطب لمرض نزل به فهذا يعني أنه سيستدين أو يطوي ليلته دون عشاء.

وذات مرة وبينما حمدون عائدا إلى بيته بعد جمعه الحطب اعترضه قائد مفرزة الشرطة وطلب منه إبراز رخصة جمع الحطب.

فدهش حمدون، وقال: متى كان لجمع الحطب رخصة؟!
فقال: الرخصة أو مصادرة الحطب.

فقال حمدون: أبرز لي القرار الذي يشترط علي ترخيص جمع الحطب.
شعر الرجل بالحرج فلجأ إلى أسلوب آخر يخفي فيه حرجه، فقال لحمدون: يبدو أنك قليل الأدب ومتطاول على القانون، ولذلك سنعاملك بطريقتنا الخاصة، ثم أعطى أمرا لعناصر الشرطة بأن ينهالوا على حمدون بالضرب ويصادروا حطبه، وفي غضون دقائق كان حمدون مرميا على قارعة الطريق والدماء تسيل من أنفه وفمه، وقد امتلأ جسده بالكدمات، فيما حمل الجنود الحطب ومضوا به.

وفي الطريق سأل أحد الجنود قائده: متى صدر قانون الرخصة هذا؟
فقهقه القائد بصوت عال وقال للجندي: هدف القانون حماية المدينة، ونحن حماة المدينة، فأوامرنا وتصرفاتنا هي القانون، أليس من الظلم أن ننشغل نحن بحماية المواطنين وينشغلون هم بالعمل والكسب وجمع المال؛ لذا فنحن -حماة المدينة- شركاؤهم في كسبهم.

وهنا صرخ الجندي قائلا: صدقت يا سيدي نحن حماة الديار نحافظ على بيضة الشعب، ولولا نحن لضاعت أموالهم، كم هو حقير هذا الحطَّاب وهو يريد أن يمنعنا من أخذ الحطب دون أن يُقدِّر جهودنا.

ودغدغت هذه الكلمات غرور القائد فقهقه وقال: يظلمنا الناس باعتراضهم على أفعالنا التي فيها مصلحة المدينة!

عاد حمدون إلى بيته والألم يملأ قلبه، فهل يعقل أن يُسلب الفقير قوت يومه الذي لا يجد سواه، والسالب هم المكلفون بحمايته أصلا؟

دخل حمدون بيته فاستقبلته زوجته وقد امتلأ قلبها خوفا وسارعت تمطر حمدون بسيل أسئلتها: من فعل بك هذا؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟
فقال حمدون: دعيني أرتاح أولا فأسئلتك المتتابعة وأنا في هذه الحالة أشد علي مما جرى لي.

وبعد أن ارتاح قليلا وغسل جراحه حكى حمدون لزوجته ما جرى له، وبيْن كل جملتين كان يذكرهما حمدون كانت زوجته تطلق من فمها دعوة على أولئك الظالمين بالدمار والهلاك وأنواع الأمراض والأوبئة والآفات والمصائب والرزايا.
وبعد أن انتهى من حديثه سألته: وماذا ستفعل الآن؟ والأهم من ذلك: ماذا سنأكل اليوم ؟
فقال لها: تدبري أمر طعامك وأولادك اليوم، أما أنا فلا حاجة لي بالطعام فقد أكلت من الصفع والركل والعصي ما أتخمني، وسأذهب الآن لأشكو أولئك المجرمين إلى حاكم المدينة.

وتوجست الزوجة شرا من ذكر الحاكم فأرادت أن تثني زوجها عن عزمه، فقالت له: ولم لا تستشير الحكيم أولا؟
فقال الزوج: نعم الرأي.

كان الرجل الحكيم يقيم في طرف المدينة بعيدا عن مخالطة الناس، وكان مشهورا بفطنته وذكائه وخبرته الواسعة بخفايا النفوس البشرية، إضافة إلى ندرة كلامه، فهو لا يجيب السائل إلا بجملة واحدة لا يثنيها.

ذهب حمدون إلى الرجل الحكيم وقص عليه القصة وأخبره أنه عازم على رفع الأمر إلى الحاكم.

فقال له الحكيم: «الكلب لا يعض ذنبه» وسكت.
وعلم حمدون أن الزيارة قد انتهت، فانحدر عائدا إلى بيته وقد شعر أن الشكوى عند الحاكم لن تنفع، ولكنه حزم أمره متوجها إلى قصر الحاكم قائلا: «إن لم تنفع الشكوى فلن تضر»، فلما دخل على الحاكم أخبره بما جرى.

فأظهر الحاكم تألمه الشديد وأمر على الفور بتشكيل لجنة تستمع إلى أقوال الطرفين ثم ترد الحق إلى صاحبه.

وما إن خرج حمدون حتى دخل قائد المفرزة ومعه أمتعة وأطعمة كثيرة، ومن بينها حزم الحطب التي سلبها من حمدون، وقال: هذه مصادرات اليوم يا مولاي، وهذه الحزم مصادرات من التعيس الذي كان عندك قبل قليل، وأظنه كان يشكوني.
قهقه الحاكم وقال: نعم، إنه شخص جاحد لفضلنا عليه، ولكني سأجعله عبرة لكل من تسول له نفسه الاعتراض على رجالي رجال الأمن حماة الديار.

وشكلت المحكمة وعقدت الجلسات واستمعت إلى الأطراف، ثم صدر الحكم بمصادرة الحمار؛ لأن حمدون لا يملك رخصة قيادة للحمار، وبتكريم قائد المفرزة لجهوده المضنية المبذولة لحماية المواطنين وتوفير أسباب الراحة لهم.

رجع حمدون إلى بيته وهو يشعر بالقهر الشديد والندم الكبير؛ لأنه أهمل نصيحة الرجل الحكيم، ولينسى شيئا من همه وغمه ذهب ليسهر عند بعض رفاقه، ولما استقر به المجلس قص ما جرى معه.

فقال له صديقه الجزار: أما أنا فقد جاءني قائد المفرزة وطلب مني شهادة نسب الخروف المعلق بالكلاليب وأنه وُلد من سلالة سليمة، ولما أبديت استغرابي صادر الخروف، فذهبت إلى الحكيم فقال لي بعد أن استشرته في الشكاية: «لا يستقيم الظل والعود معوج»، فشكوت أمري إلى الله.

وأما بائع الخضار فانبرى يقول: لقد جاء إليَّ وملأ ثلاثة أكياس كبيرة من الفواكه

والخضار، وقال لي: سنفحصها هل تصلح للاستهلاك البشري أم لا!
وهنا عدَّل الخياط من جلسته، وقال: لقد جاء إلي وسلبني ثوبا فاخرا من الحرير زاعما أن هناك من سرق كمية من ديدان القز وأنهم سيأخذون البصمات من الثوب لعلهم يتوصلون للسارق، وقد ترافقتُ مع بائع الخضار إلى الحكيم الذي قال لنا: «لو لم يغض القط الطرف لما لعب الفأر» فضربنا صفحا عن الشكوى.

ثم جاء دور النجار ليقول: لعلي لست أسوأكم حظا؛ فقد جاءني وأخذ يجول بناظريه في حانوتي، وعلمت أنه يبحث عن ذريعة ليسلب شيئا من الدكان، فبادرته قائلا: أريد أن أتشرف بالمساهمة في دفع ثمن طعام الفطور لرجال أمننا البواسل، وأتمنى ألا تحرمني شرف تلك المساهمة اليسيرة، فكم ثمن فطوركم؟ فضحك قائد المفرزة قائلا: يعجبني المواطن الذي يعرف مصلحته ومصلحة المدينة، ثمن الفطور عشرة دراهم، فدفعتها إليه وانصرف.

وقد تعجب قائد المفرزة وهو يرى كل من يظلمه يذهب مسارعا إلى الرجل الحكيم، فقرر أن يذهب إلى الحكيم ليرى ما لديه.

فركب حمار حمدون المصادر وذهب إلى الرجل الحكيم، فلما دخل عليه عرَّفه بنفسه ثم أخذ يقص عليه منجزاته الأمنية الوهمية التي لا تنتهي، ولما فرغ قال الحكيم جملتين على خلاف عادته، قال: «أحمق من يأمن تقلبات الزمان» و«الواثق بصبر المظلوم كالواثق بالبركان الذي يوشك أن ينفجر».

انتهت.

الفهرس

المقدمــة 1
لقمــة الخبــز الأخيــرة 2
راودتــه فاســتعصم 4
خســئت بــل ربــي الله 7
اليــوم عــرس ولــدي 10
وأشــرق نــور الإيمــان 13
برميــل القصــاص 17
حســاء القطــط 21
اللغــة التــي يفهمهــا العــدو 24
البــس هــذه جعبــة أبيــك 27
إن ربــك لبالمرصــاد 31
لــن أثــأر لنفســي 35
دمــوع أرملــة الشــهيد..... 39
دمــاء على القميــص الأصفــر 44
طلــب العلــم في ســجون النصيريــة 48
ضــرب متــة 52
بين الحــب والإيمــان 54
يلعــن روحــك يــا حافــظ 60
ليلة ربــاط في تــل صيبيــن 64
ذكريــات ومواقــف 71
دعــوة العجــوز 83
حمدون الحطــاب 88